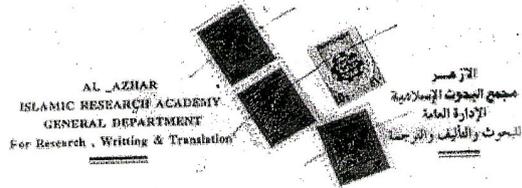


١

التوسّل



تصريح طبع ونشر وتداول
صادر في ٥-١-٢٠١٥ م
كتاب : (التوسل من منظار: القرآن والسنة والعقل)

السيد الدكتور / احمد محمد قيس ...
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ،،،
فيسر الأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية الإدارة العامة للبحوث والتأليف
والترجمة أن تخطر ببالها وافقت على طلبكم الخاص بطبع ونشر وتداول كتابكم
(التوسل من منظار القرآن والسنة والعقل) .
وليس في الكتاب المذكور ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ولا مانع من طبعه
ونشره وتداوله مع التأكد من ضرورة العناية التامة بتصوير الآيات القرآنية من
المصحف ، وأيضا العناية التامة بالأحاديث النبوية الشريفة وغزوها إلى مصادرها

والله الموفق
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
تحريرا في: ٥/١/٢٠١٥
مدير عام
إدارة البحوث والتأليف والترجمة
عبدالله
الأمين العام

٢٠١٥/١/٥

جميع حقوق الطبع والنشر والملكية الفكرية محفوظة للمؤلف .

رقم الإيداع ٢٠١٥/٣٣٨٩

يلزم التنويه هنا بأن جميع ما ورد في سطور هذا الكتاب من أفكار واقتباسات وآراء
يسأل عنه المؤلف .

التوسّل

من منظار القرآن والسنة والعقل

تأليف

الدكتور أحمد محمد قيس

أستاذ جامعي لبناني

تقديم الكتاب

بقلم الأستاذ الدكتور يوسف محمد عمرو

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد،
وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه المنتجبين،
وعلى التابعين لهم بإحسان إلى قيام يوم الدين.

وبعد: فإن أمر الله تعالى للمسلمين بوحدة الكلمة، وعدم
الخلاف والاختلاف، والتنازع، والتقاطع، واضح وبيّن في
آيات كثيرة منها، قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا
تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١).

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾^(٢)

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزِعُوا
فَنفْسُلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّا اللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(١) وقوله:
﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(٢).

وكذلك كانت توجيهات رسول الله ﷺ إلى المسلمين،
فمما جاء في خطبته في حجة الوداع قوله ﷺ: «أيها الناس،
إنما المؤمنون أخوة، ولا يحل لمؤمن مال أخيه إلا عن طيب
نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد فلا ترجعن كفاراً يضرب
بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن
تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنتي، ألا هل بلغت؟ اللهم
اشهد»^(٣).

وأعظم فتنة وقعت في صدر الإسلام، وحملت سيف
التكفير فوق رقاب المسلمين، ضاربة بعرض الجدار جميع
الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة الأنفة الذكر، كانت فتنة
الخوارج الذين قالوا بكفر عثمان بن عفان، وعلي بن أبي
طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وأبي

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

(٣) نقلاً عن ابن شعبة الحران، كتاب تحف العقول، ص ٢٤. كما أنها وردت
في المتن لهذا الحديث الشريف «كتاب الله وعترتي» وكذلك في العديد من
المصادر المعتمدة.

موسى الأشعري ومن شايعهم وتابعهم إلى يوم القيامة، واعتقدوا بأنفسهم أنهم من أهل الإيمان والجنة، وأن جميع من فارقهم بالقول، أو العمل فهو كافر وضال.

والفتنة الثانية، كانت فتنة القول بخلق القرآن، والتي اخترعها الخليفة العباسي/ عبد الله المأمون (توفي ٢١٨هـ = ٨٣٣م)، في أواخر حياته، بتحريض من أئمة المعتزلة وشيوخهم في بغداد.

وقد أدى تعصب الخوارج، والمعتزلة لآرائهم ومعتقداتهم، في ما بعد إلى وقوع فتن كثيرة، وحروب مدمرة، ذهبت بهم إلى التوقع على أنفسهم، والاضمحلال، والانهيار كما هو معروف في تاريخهم.

والفتنة الثالثة، كانت في بعض الآراء والفتاوى التي أطلقها ابن تيمية في القرن الثامن الهجري، وتفرد بها عن العلماء السابقين له، وعن معاصريه، والتي لا زال المسلمون يعانون مرارتها، ويختلفون حولها، ويتنازون بالألقاب بينهم على أساسها منذ أيامه، إلى أيامنا هذه .

ومن هذه الآراء التي تفرّد بها وأثارها كانت قضية التوسّل بالنبي ﷺ، وبأهل بيته الأطهار، وبالصحابة والتابعين، بعد وفاتهم، والتقرب بهم إلى الله تعالى، لاستجابة الدعاء، وقضاء الحاجات.

وقد أجاد الدكتور/ أحمد قيس في عرض هذه القضية خير إجابة، وأفاد في ما ذهب إليه خير إفادة، لمعالجته قضية التوسّل بأسلوب علمي رصين على ضوء القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والعقل، واللغة، مبتعداً عن لغة السباب والشتائم والالتهام بالشرك (والتي شاعت في أيامنا هذه بكل أسف)، والذي كان يواجهها الحجاج كل عام في زيارتهم لمقام سيد الخلق محمد ﷺ، ولمقامات آل البيت عليهم السلام، وللصحابة والتابعين في المدينة المنورة من قبل بعض المتعصبين لفتاوى ابن تيمية.

إن بعض آراء وفتاوى ابن تيمية التي فارق بها أمور المسلمين، والتي أدت بعلماء عصره في دمشق وغيرها من حواضر إسلامية إلى اتخاذ مواقف سلبية منه - كما سنعرف من خلال هذا الكتاب - وقد صدرت منه أيام فتنة المغول وسيطرتهم على بغداد وسائر بلاد المشرق الإسلامي، وتهديدهم لدمشق والقاهرة بالغزو والإبادة، وأيام سيطرة البيزنطيين، وأوروبا الغربية على البحر الأبيض المتوسط، وأيام سيطرة الروح الانهزامية على المسلمين، وانطوائهم على أنفسهم، والتجاء الصلحاء منهم، إلى التوسّل بالأولياء، وتركهم لفريضة الجهاد حيث أتت بعض آراء ابن تيمية وفتاويه وليدة لذلك العصر، الذي سيطرت رياحه العاتية على القرن

الثامن الهجري، وكادت أن تذهب بالإسلام وأهله، لذلك نرى أنه كان على الدكتور/ أحمد قيس أن يفرد باباً خاصاً من كتابه لدراسة عصر ابن تيمية، والأحوال الاجتماعية، والسياسية، والدينية التي ساعدت على نشوء تلك الآراء والفتاوى الفريدة، والغريبة التي أثارت رياح الفرقة والخلاف بين المسلمين.

وبعد.. إن ما قام به المؤلف في كتابه جديراً بالاحترام والتقدير، لأنه يضع من خلال هذه البحوث حلقة وصل للحوار الإسلامي على ضوء الكتاب، والسنة، والعقل بين أتباع الإمام/ ابن تيمية، وبين المذاهب الإسلامية الأخرى في أيامنا هذه، والتي كادت أن تشابه أيام ابن تيمية في القرن الثامن الهجري.

كما أن أكثر ما نخشاه من أتباع ابن تيمية هو استمرارهم في اتهام غيرهم من المسلمين بالضلال، والمروق عن الدين إسوة بأسلافهم المعتزلة في القرن الثالث الهجري في فتنة خلق القرآن، كما نأمل من المؤلف، أن يتحف المكتبة الإسلامية بالمزيد من هذه البحوث العلمية، والتي يستفيد منها المسلمون في وحدة كلمتهم، أمام التحديات العديدة التي تواجههم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والله ولي التوفيق

يوسف محمد عمرو

بيروت - لبنان

الإهداء

إلى روح النبي الأعظم ﷺ
وإلى أرواح آل بيته
الطيبين الطاهرين
الذين أذهب الله عنهم الرجس
وطهرهم تطهيراً
وإلى الأصحاب الأخيار
والعلماء والصالحين
أهدي هذا العمل المتواضع
راجياً من الله القبول
والشفاعة بمحمد وآل محمد
صلوات الله عليهم أجمعين

المقدمة

◀ لمحة تاريخية:

منذ العصور الأولى للإسلام، وتقريباً حوالي منتصف القرن الأول الهجري، خرج المسلمون من شبه الجزيرة العربية لفتح المناطق والبلاد البعيدة لنشر الإسلام وكلمة التوحيد، وشكّل هذا الأمر واحداً من العوامل التي عرضت الإسلام كدين وعقيدة إلى العديد من الاعتراضات والتساؤلات والشبهات، بخصوص الكثير من المسائل ذات الصلة بالجانب العقائدي، الأمر الذي جعل العلماء وأصحاب الفكر الإسلامي، وفي مقدمتهم أهل البيت عليهم السلام يهبون من أجل التصدي لهذه الأفكار والتساؤلات بالتوضيح والبيان، من خلال إمطة اللثام عن المواضيع المطروحة، وذلك عبر تأصيل ورسم المعالم الفكرية الإسلامية المنطلقة من القرآن والسنة.

ثم ما لبث الأمر أن تطور وخاصة في العصور اللاحقة،

مع بروز العديد من التيارات الفكرية المختلفة، والتي نجم عنها تبلور العديد من الفرق والمذاهب الإسلامية، التي أخذت تتصارع بدورها في ما بينها، في سبيل إثبات وتركيز دعائم آرائها، بحسب مقتضيات الظروف لجهة الزمان والمكان.

وفي الوقت الذي كان يواكب أئمة أهل البيت عليهم السلام كل هذه الطروحات والمتغيرات مع خُلص أصحابهم وتلاميذهم الذين كانوا يشكلون صمام الأمان في هذه المرحلة المذكورة، فقد كانوا لا يدعون فرصة سانحة إلا ويعبرون فيها عن الفكر الإسلامي الأصيل، وأيضاً كان هذا التحرك يراعي في معالجاته لهذه المواضيع خصوصية الزمان والمكان.

يُبدّ أنه يمكن تقسيم هذه المسيرة المذكورة إلى مرحلتين مختلفتين:

أ - الأولى: وهي الناجمة عن انتشار الإسلام وامتداده إلى العديد من البلدان والشعوب خارج شبه الجزيرة العربية، وصولاً إلى الهند وفارس وحتى مشارف بلاد الروم. هذا التمدد جعل الإسلام والمسلمين يتعرضون إلى العديد من الآراء والمعتقدات والتساؤلات من قبل أبناء تلك الحضارات، ويمكن القول بأن معظم تلك التساؤلات والإشكالات والشبهات كانت تدور حول مواضيع مثل: الله، الإله الواحد، النبوة، البعث... إلخ.

ب - الثانية: وهي تلك المرحلة التي امتدت من دولة بني أمية حتى عهد المماليك، والتي شهدت العديد من المنازعات والتباينات حول الكثير من المواضيع التي لها صلة بالجوانب العقيدية الإسلامية حصراً، والتي نجم عنها بروز العديد من الفرق والمذاهب المختلفة - كما أشرنا سابقاً - وكان مجمل هذه المواضيع المتنازع حولها تدور حول قضايا مثل: الصفات الإلهية، التشبيه والتجسيم، العدل، القضاء والقدر، الجبر والتفويض، العصمة، الإمامة، البداء، البعث أو المعاد الجسماني أو الروحاني... إلخ.

وعلى ما يبدو فإن مسألة التوسل لم تكن مطروحة آنذاك بحسب ما توافر لي الاطلاع عليه من المصادر إمّا لجهة اعتبارها أمراً ثانوياً أمام المواضيع المطروحة الأخرى من حيث الأهمية، وإمّا لأنها من المسلمات المتفق عليها بين المسلمين في تلك العهود.

وما زال الأمر كذلك حتى جاء ابن تيمية الحراني، الذي عاصر العهد المملوكي الأول، عصر المماليك البحرية (٦٤٨هـ - ٧٨٤هـ)^(١) طارحاً نفسه داعية للتجديد، شاهراً سيف آرائه في وجه معظم العلماء السابقين والمعاصرين له.

(١) صائب عبد الحميد، حياته وعقائده، الغدير للدراسات والنشر، بيروت، بدون تاريخ نشر، ص ١٥.

ولقد أدى ذلك إلى حدوث موجة عالية من الانتقادات له ولمعظم أفكاره حتى وقتنا هذا، ومنها موقفه من التوسّل، والتي عمل العديد من العلماء في القديم والحديث على تنفيذها وانتقادها، كما تم التوقف عندها ملياً، ولقد كانت هذه المسألة من الخطورة بمكان لارتباطها بأهم المسائل العقائدية الإسلامية، ألا وهي «التوحيد».

◀ هذا الموضوع لماذا؟

بناءً على ما تقدم، لم يبق أحدٌ تقريباً من العلماء المسلمين إلا وتناول هذا الموضوع، أو هذه القضية بطريقة أو بأخرى، ولكن للأسف بقيت معظم هذه الردود والتعليقات في بطون ومطاوي المصنفات العقائدية الشاملة للعديد من المسائل والقضايا، ومع درجة أهميتها لم أجد مصنفاً خاصاً بها، يتعرض لها بشكل واسع ويعرض لمعظم الآراء المتباينة حولها، بالرغم من الحاجة الملحة لدراستها وتوضيحها، وتحديد أبعادها الفكرية والعقائدية.

هذا من جهة، وأما الأمر الآخر الذي حفزني للكتابة في هذا الموضوع، فهو لأنّه مورد ابتلاء وتساؤل حقيقي يعيشه المسلمون، مع تنامي الأفكار السلفية حول العالم، من خلال ما تحمله هذه الأفكار من طروحات لا تنسجم مع ما يعتقد

معظم المسلمين، هذا الأمر الذي لمستته أنا شخصياً من خلال
تشرفي بزيارة بيت الله الحرام، وتشرفي بزيارة مسجد النبي
الأعظم ﷺ وكان ذلك عام ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

◀ هذا الكتاب:

جاء هذا الكتاب مؤلفاً من مقدمة، وأربعة فصول وخاتمة،
أما الفصل الأول: فقد احتوى على عدة أبحاث حَمَلَتْ
العناوين التالية: تعريف التوسّل، حيث بيّنتُ فيه التعريف
الاصطلاحي، والتعريف اللغوي المعجمي، وموارد الاستعمال
هذه في القرآن الكريم، كذلك بيّنت فيه الفرق بين التوسل
والشفاعة.

أما الفصل الثاني: الذي جاء بدوره في عدة أبحاث، فلقد
عالجت فيه العناوين التالية: جواز التوسل أو أدلة القائلين به
مستعرضاً أدلّتهم العقلية، مبيّناً قيمة هذه الأدلة، وانسجامها مع
القول: بأن الأحكام تابعة للقصود (المقصودات)، وكذلك
استعرضت أدلتهم الشرعية من القرآن والسنة، وسيرة المسلمين
وتعاطيهم مع هذه المسألة، مع ذكر بعض وأهم القائلين
بالجواز.

أما الفصل الثالث: فقد اشتمل كذلك على عدة أبحاث
حملت العناوين التالية: منكرو التوسّل أو أدلة المعترضين،

ابتداءً من موقفهم من الأدلة العقلية وصولاً إلى النتيجة الحاصلة من خلال الإنكار أو الرفض لهذه الأدلة، وكذلك استعرضت أدلتهم الشرعية وقولهم بضرورة الجمود على ظاهر النص، كما أوضحت حقيقة اعتمادهم على حجية عمل السلف، واعتراضهم على العمل بالتأويل، مع ذكر بعض وأهم القائلين بهذا الرأي.

أما الفصل الرابع: فقد سلّطت فيه بعض الضوء على معالم مدرسة كلامية ناشئة خرجت من رحم مذهب القائلين بالتوسّل، لكن مع بعض التحفظ حول عدة مسائل متعلقة بجهة التعبير والأسلوب، كما حاولت أن أطرح بعض الصعوبات التي تعترضها، والنتائج التي توصلت إليها، ثم قمت باستعراض عام بما يجوز أو لا يجوز التوسّل به عند كل هذه التيارات والفرق.

واتبعنا في عملنا هذا منهجاً تاريخياً وثائقياً فحصنا على أساسه التطور التاريخي للآراء، ولقد أوجبت طبيعة البحث علينا كذلك أن نلجأ إلى منهج التحليل والتركيب، بغية سبر المقاصد والمعاني التي احتوتها الآراء والمذاهب، ثم تكوين صورة عامة وشاملة حول الموضوعات مجال الكتاب.

هذا، وقد اعترضت طريقنا في كتابة هذا الموضوع صعوبات تمحورت في نقطتين: النقطة الأولى، هي مراجعة

الكثير من المصنفات الكلامية والعقائدية، القديمة والحديثة في سبيل استخراج آراء هؤلاء المتكلمين الموزعة في مطاوي مصنفاتهم، أما النقطة الثانية، دقة المصطلح الكلامي وصعوبته، وهو مصطلح ينتمي إلى حقبة إبداعية من تراثنا، فاقضى منا ذلك جهداً إضافياً^(١).

وأخيراً فإنّ ما قدمناه من جهد هنا لا يدعي الكمال، ولا خلّوه من النقائص والعيوب، شأنه شأن كل بحث أو دراسة، لكن حسبنا أننا بذلنا الجهد، والطاقة، ولم نوفر وسعاً، وفي خلدنا قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾^(٢).

(١) وهنا لا بد من التوجه بالشكر إلى كل الذين مددوا يد العون لي من أجل إتمام هذا الكتاب، وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور خنجر حميه الذي تولى توجيهي وإرشادي، وكذلك الأستاذ علي طالب لدعمه المعنوي، وأيضاً الأستاذ محمد درّة الذي ساعدني في اختيار هذا الموضوع، والشكر موصول لكل الذين ساهموا بطريقة أو بأخرى في إبداء الملاحظات حول بعض النقاط المهمة ذات الصلة بالموضوع.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

الفصل الأول التوسّل لغة واصطلاحاً

- ١ - التوسّل: لغة
- ٢ - التوسّل: اصطلاحاً
- ٣ - التوسّل في القرآن الكريم
- ٤ - الفرق بين التوسّل والشفاعة

١ - التوسّل لغة

المراد من الاستعمال اللغوي هو تبيان لمعنى لغوي ما في لفظ معين، ومعرفته في دلالاته الأصلية التي استعمل فيها، وفقاً لمراد المتكلم ولقرائن اللفظ والحال.

وبما أن لفظة (التوسّل) لفظة عربية أصيلة، وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة وكلام العرب من شعر ونثر، فقد اهتم أصحاب المعاجم اللغوية بذكرها في مصنفاتهم، ولفهم المعنى المقصود والدلالة الصحيحة لهذا الاستعمال، لا بد من الرجوع إلى هذه المعاجم المتخصصة، وهو من هذه الجهة يلتقي مع التعريف الاصطلاحي، ويمتاز عنه لجهة الدلالة المقصودة تحديداً في هذا الاستعمال، في السياق المعبر عنه لغة أو كتابة.

وقد يختلف المعنى المقصود للفظة ما بحسب استعمالها بين تعبير وآخر، وهو المعبر عنه في علم الأصول بـ (المراد الاستعمالي)، قال ابن الأثير في (النهاية): الواسل: الراغب،

والوسيلة: القربة والواسطة، وما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به، وجمعها وسائل^(١). وقال الفيروز آبادي في (القاموس):
وسل إلى الله توسيلاً: عمل عملاً تقرب به إليه كتوسل^(٢).

وقال ابن فارس في (معجم المقاييس): الوسيلة: الرغبة والطلب، يقال وسل إذا رغب، والواسل: الراغب إلى الله^(٣).

وقال الراغب الأصفهاني في (المفردات): الوسيلة هي التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيلة، لتضمنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: ﴿وَأَبْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(٤)، وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى: مراعاة سبيله بالعمل والعبادة، وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقربة، والواسل هو الراغب إلى الله تعالى، وقد نقل العلامة ابن جرير هذا المعنى.

وأنشد عليه قول الشاعر:

-
- (١) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ نشر، مادة (وسل).
- (٢) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ نشر، مادة (وسل).
- (٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ نشر، مادة (وسل).
- (٤) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا

وعاد التصافي بيننا والوسائل^(١)

وهنالكَ معنى آخر للوسيلة هو المنزلة عند الملك، والدرجة والقربة، كما ورد في الحديث تسمية أعلى منزلة في الجنة، وذلك في قوله ﷺ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإن من صلى عليّ صلاة، صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة»^(٢).

ومن الواضح أن هذين المعنيين الأخيرين للوسيلة وثيقاً الصلة بمعناها الأصلي، ولكنهما غير مرادين في كتابنا هذا، وعليه: فإن لفظة الوسيلة قد تستعمل للدلالة على الدرجة والقرب، وقد تستعمل للدلالة على التوصل إلى الشيء برغبة أو بواسطة بحسب ما تقرر في سياق الكتاب، والذي يعيننا هنا هو الاستعمال الثاني.

(١) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ نشر، مصطلح (التوسّل).
 (٢) الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، المرجع السابق، نفس المصطلح.

٢ - التوسّل اصطلاحاً

قبل الخوض في هذا الموضوع، لا بد من الإشارة إلى المقصود من التعريف المنطقي الإصطلاحي، بحسب ما قرره المناطق في كتبهم، فالتعريف الإصطلاحي، والذي يسمى أيضاً بالتعريف المعجمي أو القاموسي، هو تقرير عن لفظ ما بحسب كيفية استخدامه فعلاً في وقت معين من قبل أناس معيّنين ينتمون إلى دائرة اختصاص أو ينخرطون في جماعة موصوفة، يعتمدون لغة معينة في نقل المعاني التي يشتركون في حملها والإشتغال عليها، والمعاجم والقواميس سجلات مليئة بالتعريفات الإصطلاحية.

فإذا رغبتنا في معرفة المعاني المتعارف عليها بين الناس في مجتمع ما وزمن ما، فما علينا سوى العودة إلى القاموس^(١)،

(١) هادي فضل الله، مقدمات في علم المنطق، الطبعة الثانية، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١١٨.

ومما جاء في معجم لسان العرب^(١) في ذكر مادة (وسل):
الوسيلة: المنزلة عند الملك، والوسيلة: الدرجة، والوسيلة:
القربة، ووسل فلان إلى الله وسيلة إذ عمل عملاً تقرب به إليه،
والواسل: الراغب إلى الله، قال لبيد بن ربيعة: (. . . كل ذي
رأي إلى الله واسل أمره).

وتوسّل إليه بوسيلة إذا تقرب إليه بعمل، وتوسّل إليه بكذا:
تقرب إليه بحرمة أصرة تعطفه عليه، والوسيلة: الوصلة والقربى،
وجمعها الوسائل، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ
إِلَىٰ رَبِّهِمُ أَلْوَسِيلًا أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾^(٢)، وعرف الجوهري (صاحب
الصحاح) الوسيلة بأنها: ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسل
والوسائل، والتوسيل والتوسّل واحد، وفي حديث الأذان: اللهم
أت محمداً الوسيلة، هي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء
ويتقرب به، والمراد في الحديث القرب من الله تعالى، وقيل:
هي الشفاعة يوم القيامة، وقيل: هي منزلة من منازل الجنة كما
جاء في الحديث، وشيء واسل: واجب، قال رؤية بن العجاج:
«وأنت لا تنهر حظاً واسلاً»، والتوسل أيضاً: السرقة، يقال:
أخذ فلان إبلي توسلاً أي سرقه.

(١) ابن منظور (ابن الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، مؤسسة
الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٥، مادة: وسل.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٧.

أما عند المتكلمين فإنهم لم يضعوا للفظه التوسّل معنى اصطلاحياً مغايراً لما ورد في الاستعمال اللغوي، حيث أنهم استعملوا هذه الكلمة بمعناها اللغوي، وإليك بعض الأمثلة: قال الإمام السبكي في شفاء السقام: «المتشفع بالشخص: من جاء به ليشفع له، فكيف يصح أن يقال: يتشفع به؟ قلت: ليس الكلام في العبارة، وإنما الكلام في المعنى، وهو سؤال الله بالنبي ﷺ، كما ورد عن آدم ﷺ، وكما يفهم الناس من ذلك، وإنما يفهمون من التشفّع والتوسّل والاستغاثة والتوجه ذلك، ولا مانع من إطلاق اللغة هذه الألفاظ على هذا المعنى، والمقصود جواز أن يسأل العبد الله تعالى بمن يقطع أن له عند الله قدراً ومرتبة...»^(١).

وكذلك قال الشيخ جعفر السبحاني في التوسّل: «إن التوسّل يتم من خلال الصورتين التاليتين: الصورة الأولى، أن نهتم بالأولياء، وأن نتخذهم واسطة بين أنفسنا وخالقنا، ونتوسّل إلى الله بذات هؤلاء... الصورة الثانية: أن نأخذ بنظر الاعتبار مقام هؤلاء ومكانتهم واحترامهم عند خالق العالم، ونجعل ذلك وسيلة...»^(٢).

(١) تقي الدين السبكي، شفاء السقام في زيارة خير الأنام، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١، ص ١٥٥.

(٢) جعفر السبحاني، التوسّل أو الاستغاثة بالأرواح المقدسة، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٩٢، ص ٦٩.

وقال السيد الأمين في كشف الارتياح: «في التوسّل . . . وهذا يكون على وجوه (أحدها): أن يقول: أتوسّل به إلى الله أو أتوجه به إلى الله أو أتشفع أو أقدمه بين يدي حاجتي . . . (ثانيها): أن يقول أسألك بفلان أو بحق فلان أو بحقه عليك أو بجاهه عندك. (ثالثهما): أن يقول أقسمت عليك بفلان أو نحو ذلك، وكلها تؤول إلى شيء واحد وهو جعله وسيلة وواسطة بينه وبين الله تعالى»^(١).

ويبّنه الألباني بقوله: «إذا عرفنا أن الوسيلة هي السبب الموصل إلى المطلوب برغبة . . .»^(٢).

وعليه: نخلص إلى أن المتكلمين استعملوا لفظ التوسّل بمعناها اللغوي، ولم يكن لهم فيها اصطلاح خاص مميز، فتوحد عندهم المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي.

(١) محمد الأمين، كشف الارتياح، الطبعة الثانية، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ص ٢٤١.

(٢) محمد ناصر الدين الألباني، التوسّل: أنواعه وأحكامه، الطبعة الخامسة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٨.

٣ - التوسّل في القرآن الكريم

وردت لفظة (الوسيلة) في القرآن الكريم مرتين، مرة في سورة المائدة، الآية ٣٥ في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والثانية في سورة الإسراء الآية ٥٧ في قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

وقد شرح الطبرسي في مجمع البيان^(١) الآية الأولى من هاتين الآيتين، قائلاً: لما تقدم ذكر القتل والمحاربين في الآية السابقة عقب ذلك بالموعظة والأمر بالتقوى، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: اتقوا معاصيه واجتنبوها، ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ أي: اطلبوا إليه القربة بالطاعة، وعن الحسن ومجاهد، وعطا والسدي وغيرهم، فكأنه قال: تقربوا

(١) الطبرسي (أبو علي الفضل بن الحسن)، مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الجزء الثالث.

إليه بما يرضيه من الطاعة، وقيل: الوسيلة أفضل درجات الجنة عن عطا أيضاً، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة، لا ينالها إلا عبد واحد، وأرجو أن أكون أنا هو».

وروى سعد بن طريف بن الأصبغ بن نباتة عن عليّ ﷺ قال: «في الجنة لؤلؤتان إلى بطنان العرش، إحداهما بيضاء والأخرى صفراء في كل واحدة منهما سبعون ألف غرفة، أبوابها وأكوابها من عرق واحد، فالبيضاء الوسيلة لمحمد ﷺ وأهل بيته ﷺ والصفراء لإبراهيم ﷺ وأهل بيته ﷺ».

أما الشيخ مغنية في الكاشف فيقول في معنى هذه الآية: «إن تقوى الله وابتغاء الوسيلة إليه والجهاد في سبيله، كل هذه تعبير عن معنى واحد، أو عن معان متلازمة متشابكة، لأن تقوى الله اتقاء سخطه، وابتغاء الوسيلة إليه طلب مرضاته، والجهاد في سبيله يشمل الأمرين. . . وأفضل ما يتوسّل به المتوسلون إلى الله حبّ الناس، والعمل من أجلهم، وقرأت كلمة لكاتب كبير يقول: محال أن يعرف حقيقة الناس من لا يحبّ الناس، ونزید عليها (والكلام للشيخ مغنية): ومحال أن يحبّ الله من لا يحبّ الناس»^(١).

(١) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، الطبعة الرابعة، دار العلم للملايين، بيروت، الجزء الثالث.

أما بخصوص الآية الثانية التي وردت في سورة الإسراء، الآية ٥٧، فقد قال الطبرسي^(١) في تفسيرها: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، أي أولئك الذين يدعون إلى الله، ويطلبون القربة إليه بفضل الطاعات، ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي ليظهر أيهم الأفضل والأقرب منزلة منه، وتأويله: إن الأنبياء مع علو رتبهم وشرف منزلتهم إذ لم يعبدوا غير الله، فأنتم أولى أن لا تعبدوا غير الله، وإنما ذكر ذلك حثاً على الاقتداء بهم، وقيل: إن معناه أولئك الذين يدعونهم ويعبدونهم، ويعتقدون أنهم من المسيح والملائكة، يبتغون الوسيلة والقربة إلى الله تعالى بعبادتهم، ويجتهد كل منهم ليكون أقرب من رحمته، أو يطلب كل منهم أن يعلم أيهم أقرب إلى رحمته، أو إلى الإجابة ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ أي: وهم مع ذلك يستغفرون لأنفسهم ويرجون رحمته، إن أطاعوا، ويخافون عذابه إن عصوا، ويعملون عمل العبيد ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: متقى يجب أن يحذر منه لصعوبته.

ولقد أوضح الشيخ مغنية^(٢) معناها أيضاً فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ أولئك إشارة إلى

(١) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مرجع سبق ذكره، الجزء السادس.

(٢) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، مرجع سبق ذكره، الجزء السادس.

الذين اتخذهم المشركون أرباباً، والمعنى: إن الذين تعبدونهم أيّها المشركون يتوسّلون إلى الله بالطاعة لا يستكبرون عن عبادته ويسبّحون له ويسجدون، فكيف تعبدونهم ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ أي إن كلاً من الملائكة وعيسى وعزير يجتهد ويجهد في عبادة الله والإخلاص له ليكون قريباً من عفوه ورحمته، بعيداً عن سخطه وعذابه، ذلك ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ تحذره الأنبياء والأولياء، فكيف بغيرهم، وكل عاقل يحذر ويخاف من العواقب، ويعدّ لها العدة مهما كانت منزلته ومقدرته، وبخاصة إذا كان الطالب والمحاسب يعلم السر وأخفى.

ويقرب من ما مرّ تفسير الآية ٣٥ من سورة المائدة ما قاله الحافظ بن جرير الطبري^(١)، ونصّه: يا أيّها الذين صدقوا الله ورسوله في ما أخبرهم، ووعد عن الثواب، وأوعد من العقاب ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ يقول: أجبوا الله في ما أمركم، ونهاكم بالطاعة له في ذلك ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ يقول: واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه.

ونقل الحافظ بن كثير^(٢) عن ابن عباس رضي الله عنه اعتقاده أن:

(١) محمد ناصر الدين الألباني، التوسّل: أنواعه وأحكامه، مرجع سبق ذكره،

ص ١٣ - ١٤.

(٢) التوسّل: أنواعه وأحكامه، المرجع السابق، ص ١٤.

معنى الوسيلة فيها القربة . . . والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى
تحصيل المقصود.

ولقد نقل الألباني^(١) في تفسير الآية ٥٧ من سورة
الإسراء، عن مسلم والبخاري في صحيحهما، سبب نزول هذه
الآية نقلاً عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في
سياق بيان معناها فقال: نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون
نفرًا من الجن، فأسلم الجنيون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم
لا يشعرون، أي استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على
عبادة الجن، والجن لا يرضون بذلك لأنهم أسلموا، وهم
الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة، وهذا ما قاله المفسرون
حول معنى الوسيلة في الآيتين.

ولقد أردت من خلال استعراض أقوال المفسرين الإشارة
إلى عدم الاختلاف في ما قصد من معنى الوسيلة حيث وردت
في القرآن الكريم، وإن كانت التعابير متعددة متفاوتة مختلفة في
توضيح هذا المعنى وبيان هذا المراد، أو في شرحه وتقريره.

(١) التوسّل: أنواعه وأحكامه، المرجع السابق، ص ١٥.

٤ - الفرق بين التوسّل والشفاعة

ولقد وقع خلط بين المراد من الوسيلة والشفاعة عند كثير من المشتغلين بالمشكلات الكلامية العقدية في التراث الإسلامي، ولعل ذلك ناتج من اشتراك المعنيين واتحاد مضمونهما في موارد عدة، وإن اختلفت دلالتهما في موارد أخرى، بمعنى أن سبب مثل هذا الخلط هو لأنّ العلاقة بين المفهومين هي العموم من وجه^(١) مما استوجب اعتقاد اتحاد دلالتهما في جميع السياقات، ولكن أود أولاً، أن استعرض دلالة كلمة الشفاعة بحسب ما جاءت في كتب اللغة والمعاجم، قال ابن منظور في لسان العرب^(٢): «الشفع خلاف الوتر وهو الزوج»، تقول: كان وتراً فشفّعته شفعاً أي سيّرته زوجاً، والشفيع: الشافع، والجمع شفعاء، والشفيع من

(١) راجع للمزيد من التوضيح: محمد رضا المظفر، المنطق، الطبعة الثالثة، دار التعارف، بيروت، ١٩٩٥، ص ٦٧، وكذلك: هادي فضل الله، مقدمات في علم المنطق، مرجع سبق ذكره، ص ٧٨.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سبق ذكره، مادة: شفع.

الأعداد، ما كان زوجاً، تقول: كان وتراً فشفّعته بآخر، واستشفع بفلان على فلان وتشفع له إليه فشّفّعه فيه، وقال الفارسي: إستشفعه طلب إليه الشفاعة أي قال له كن لي شافعاً، وروى المبرد وثعلب أنهما قالوا في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(١)، قالوا: الشفاعة الدعاء ههنا، والشفاعة: كلام الشفيح للملك في حاجة يسألها لغيره، وشفع إليه: في معنى طلب إليه، والشافع: الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب، يقال: تشفعت بفلان إلى فلان فيه، واسم الطالب شفيح.

وقد تكرر ذكر الشفاعة في الحديث المطهر في ما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم، والمُشَفِّعُ: الذي تُقبلُ شفاعته، وقال الراغب في المفردات: الشفع: ضم الشيء إلى مثله، ويقال: للمشفوع شفّع، والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصرأله وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى.

وبناء على ما تقدم، أصبح بالإمكان ملاحظة الفرق بين لفظتي التوسّل والشفاعة، فالتوسّل هو الطلب برغبة، والذي

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

يتوصل به إلى تحقيق المقصود: هو الشفيح، والمقصود أو المراد: الشفاعة، مع ملاحظة أمر أشار إليه الراغب الأصفهاني في المفردات، وهو: أن الشفاعة تستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى، وهو ما يستبطن المغايرة والاشتراك، وهو الذي دعاني إلى القول في مقدمة مناقشة هذا الموضوع عن اشتراك المعنيين لجهة خصوص وعموم من وجه.

فالتوسّل هو طلب الداني ممن هو أعلى مرتبة وحرمة ليشفع له عند الملك في التجاوز عن الذنوب والجرائم في الدنيا والآخرة، وهذا المعنى تحديداً هو مورد الخلاف القائم بين الفريقين، والذي ستتضح معالمه في الفصول اللاحقة.

وختاماً: حاولنا في هذا الفصل أن نبين باختصار المراد من لفظ التوسّل في اللغة والاصطلاح، وبيّنا موارد استعماله في القرآن الكريم مسترشدين بآراء المفسرين، كما أوضحنا في نهاية هذا الفصل الفرق بين التوسّل والشفاعة، وفيما إذا كانا يلتقيان في دلالتهما أو لا.

ولقد كان مقصودنا في هذا الفصل حقيقةً تحديد المفاهيم، وبيان المعاني، ليكون انشغالنا في الفصول التالية في الآراء واضحاً لا لبس فيه ولا غموض.

الفصل الثاني

في إمكان التوسّل: أدلته، والقائلون به

١ - الأدلة العقلية على إمكانية التوسّل وقيمتها:

أ - العقل والأدلة العقلية

ب - قيمة الأدلة العقلية/ استقلال العقل وعدم
استقلاله

ج - الأحكام تابعة للقصود (المقصودات)

٢ - الأدلة الشرعية:

أ - القرآن الكريم

ب - السنّة المطهّرة: تعريف السنّة وحقيقتها/
الأدلة من السنّة

ج - سيرة المسلمين

٣ - أهم القائلين بالتوسّل

١ - الأدلة العقلية على إمكانية التوسّل وقيمتها

استدل القائلون بجواز التوسّل وإمكانه بأدلة متعددة مختلفة، وتفننوا في استعراض حججهم وبراهينهم، وما يمكن أن يدعم اعتقادهم، ويؤيد مذهبهم من المؤيدات، ولقد توزعت هذه الأدلة في جوهرها العام إلى طائفتين.

الأولى: هي التي تستند إلى العقل، وتستلهم حججه وقواعده وقوانينه، وتستنير بأدلته.

والثانية: هي التي تنتهي إلى الشريعة، وتتفهم مقاصدها، وتبيّن عن روحيتها ومعانيها، وها نحن سوف نستعرض الأدلة موضحين مراميها، مبيّنين أبعادها، محددين قيمتها باختصار.

◀ أ - العقل والأدلة العقلية:

المقصود من الأدلة العقلية، هي تلك الأدلة المستفادة من خلال أعمال العقل عبر تركيب مقدمات صحيحة، واستخراج

نتائج^(١)، أو قل النتائج التي يستنبطها العقل ويحكم بصحتها بشكل قطعي استناداً إلى مقدمات صحيحة.

ذلك أن الله تعالى منحنا قوة التفكير، ووهب لنا العقل، وأمرنا أن نتفكر في خلقه وننظر ونتأمل في آثار صنعه، ونتدبر في حكمته وإتقان تدبيره في آياته وفي الآفاق وفي أنفسنا، حتى نخلص من خلال كل ذلك إلى الإيمان به سبحانه، وقد أولى الإسلام إدراكات العقل اهتماماً بارزاً، واعتبرها الركيزة التي تقوم عليها المعرفة الإنسانية، وترجع إليها الشرائع السماوية.

وقد خصّ القرآن الكريم كثيراً من آياته للحث على إعمال العقل، ودعا إلى الإيمان بالله وتوحيده بالعقل، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢)، وقوله: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٣)، ولأجل مثل هذه المكانة التي يحتلها العقل عبّرت السنّة المطهّرة عن العقل بأنه الرسول الباطن، كما أن النبي هو الرسول الظاهر، ففي الحديث: «إن الله على الناس

(١) مثال ذلك: القول بأن كل معدن يتمدد بالحرارة، والحديد معدن، إذن الحديد يتمدد بالحرارة، أو القول بأن الكل أعظم من الجزء، فهذا دليل عقلي ناتج عن تصور معنى الكل الذي يشتمل على أفراد كثيرين، وعلى تصور معنى الجزء الذي ينحصر في فرد واحد.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٩.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢٨.

حجتين، حجة ظاهرة وباطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول^(١).

وفي السياق نفسه، نجد أن فلاسفة الإسلام والعلماء والمتكلمين، اهتموا غاية الاهتمام بموضوع العقل لجهة وجوده واعتباره الركيزة الأساس التي تبنى عليها كافة المسائل المعرفية الشرعية من عقائد وأحكام وتكاليف، وعلّق الشيخ محمد جواد مغنية على هذا الموضوع بالقول: «... ولو أسقطنا العقل عن الاعتبار، فهل يبقى الإنسان على إنسانيته؟ وبماذا نميّزه عن الحيوانات والحشرات، ونعرف الصحيح من الفاسد، والخير من الشر، والجمال من القبح؟، بل وكيف نشاهد ونجرب، ثم ننفي أو نثبت صدق التجربة إذا طرحنا العقل جانبا؟، فلا بد إذن من الأخذ بتفسيرات العقل والتزاماته بصدق فكرة ما أو كذبها، ولا نعرف قولاً بلغ من العبث واللغو ما بلغه القول بطرح العقل وعدم الثقة به»^(٢).

لذا جاء بالمأثور: «بالعقل عرف الله وبالعقل عبد»، وقد جاء في الحديث القدسي: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْعَقْلَ اسْتَنْطَقَهُ، ثُمَّ

(١) الكليني (أبو جعفر بن يعقوب)، الأصول من الكافي، دار الأضواء، بيروت، ١٩٨٥، ١/١٦.

(٢) محمد جواد مغنية، عقليات إسلامية، عز الدين للنشر، بيروت، ١٩٩٣، ١/١٧، بتصرف.

قال له: أقبّل! فأقبّل، ثم قال له أدبر! فأدبر، ثم قال: وعزّتي وجلالي! ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ منك، ولا أكملتك إلا في من أحب، أما إني إياك أمر وإياك أنهي، وإياك أعاقب وإياك أثيب^(١).

وفي ذات السياق قال أبو بكر الرازي (ت ٦٠٦هـ = ١٢١٠م): إن الباري عزّ اسمه إنما أعطانا العقل وحبانا به، لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيّله وبلوغه، وإنه من أعظم نعم الله، وأنفع الأشياء وأجداها علينا^(٢).

وقال محمد مهدي النراقي (ت ١٢٠٩هـ = ١٧٩٤م): العقل هو حجة الله الواجب امتثاله، والحاكم العدل الذي تطابق أحكامه الواقع ونفس الأمر، فلا يرد حكمه، ولولاه لما عرف الشرع، ولذا ورد: «ما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل...»، فالعقل هو الشرع الباطن والنور الداخل^(٣).

(١) الكليني، الأصول من الكافي، مرجع سبق ذكره ١/١٠.

(٢) صدر الدين فضل الله، التمهيد في أصول الفقه، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٣٠٥.

(٣) محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، الطبعة السادسة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٨، ١/١٤٥.

◀ ب - قيمة الأدلة العقلية:

بعد هذا العرض الموجز، وبالعودة إلى موضوع هذا الكتاب، يبرز التساؤل التالي: هل يستقل العقل بالحكم على المسائل العقائدية، ومنها موضوع التوسّل لوحده أم هو بحاجة إلى معونة خارجية؟ وما هي الأدلة؟ واستطراداً: هل يستقل العقل بإنتاج حكم شرعي؟، أم يبقى بحاجة إلى مؤونة زائدة كما يعبر عنه عند الأصوليين؟

وللجواب على الثاني لا بد من العودة إلى الكتب الأصولية المتخصصة التي استفاضت في شرح وتوضيح هذه المسألة . . .

◀ استقلال العقل وعدم استقلاله:

أما في بيان الجواب عن السؤال الأول: فقد مهدنا من قبل بالإضاءة حول العمدة في هذه الأدلة، وقلنا بأنه العقل، مستعرضين لبعض الآيات القرآنية والأحاديث المطهّرة والآراء حوله والمشيدة بدوره والمبينة لمكانته .

أما الآن قد جاء وقت استعراض هذه الأدلة العقلية وجواز العمل بها وفق ما قرره أصحاب الرأي القائلين بجواز التوسّل، وفي ذلك يقول الشيخ/محمد جواد مغنية في هذا الصدد: «إن

الفلاسفة يلتقون مع رجال الدين، لأن كلاً من الفريقين يتطلع إلى ما وراء الطبيعة، والفرق بينهما أن الفلاسفة يعتمدون على العقل وحده، ورجال الدين يعتمدون على الوحي والعقل، لأنهم يعتقدون أن العقل إذا استقل في معرفة وجود الخالق وصفاته، وإرسال الرسل وما إليه فإنه يحتاج إلى معونة خارجية لإدراك الكثير من المسائل»^(١) وأوضح مثال على ذلك هو موضوع كتابنا هذا.

بعد الإقرار بوجود الخالق جل شأنه والقول بوحدانيته من خلال الاستدلال بوحدة النظام الدالة على وحدانية الناظم^(٢)، وبعد التصديق بالنبوة والرسل الحاصل من خلال علم الإنسان بأنه مخلوق بإرادة ومشية الخالق، وأن هذه مشية الخالق، وأن هذه المشية لا بد لها من هدف، لأن لكل نظام هدفاً وغاية ولمعرفة هذا الهدف أو هذه الغاية لا بد من وجود واسطة أو رسول من جنس هذا الإنسان يختاره الله لإبلاغ مراده عن طريق الوحي، يصبح العقل والحال هذه بحاجة إلى معونة وإرشاد من هؤلاء الرسل في العديد من الأمور التي لا

(١) محمد جواد مغنية، عقليات إسلامية، مرجع سابق، ٢١/١.

(٢) الحلبي ابن المطهر، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٨، ص ٣٢٤، بتصرف.

يستطيع العقل إدراكها منفرداً كالشرائع والتكاليف وبعض الاعتقادات ومنها التوسّل.

وعليه: لا يمكن القول باستقلال العقل بالحكم على جميع المسائل العقائدية لوحده، بل هو بحاجة إلى معونة خارجية (الوحي أو الشرع)، وها نحن نستعرض ما سرده المتكلمون من أدلة عقلية على جواز التوسّل وإمكانه.

ومن جملة أدلتهم العقلية^(١) الدالة على إمكان التوسّل: «أن النظرة الإسلامية إلى الكون والحياة، تعتبر جميع العوامل والمؤثرات تابعة لإرادة الله، وقادرة على التأثير بإذنه سبحانه، وأن العلل والأسباب لا تملك أدنى استقلال لها أبداً، من دون فرق بين الأسباب الطبيعية والروحية»، وإن عالم الوجود هو عالم الأسباب والمسببات، وإن الخيرات المادية والمعنوية تأتي عبر الأسباب المناسبة لها، وإذا كانت الشمس منبعاً للإضاءة والطاقة والحرارة، وإن هذه الخيرات تصل إلى عباد الله بسببها، فإن الفيوضات الإلهية والخيرات الربانية تنزل على عباد الله بسبب شمس النبوة الساطعة وتشملهم بالخير والرحمة.

وعلى هذا الأساس فلا مانع - على ضوء الشرع والعقل -

(١) جعفر السبحاني، التوسّل أو الاستغاثة بالأرواح المقدسة، مرجع سبق ذكره، الصفحات: ١٦ و ١٧ و ٢٥.

أن يمنح الله سبحانه وتعالى، الذي جعل في العسل والعقاقير الطبية والكيميائية سبباً للشفاء والسلامة، أن يمنح نفس تلك القدرة للأنبياء ﷺ والأئمة (رضوان الله عليهم)، وهذه القدرة لا تكون على نحو الاستقلال منهم، بل هي خاضعة للإذن والمشية الإلهية، وهي نوع من الكرامة لهم لسموهم، ورفعتهم وقربهم منه سبحانه وتعالى، ولذا فإن قدرة الأنبياء ﷺ على شفاء المريض والقيام بأعمال خارقة للعادة لا تتنافى أن يكون الله (جل جلاله) هو السبب الحقيقي والعلة الأساسية لها.

مثالاً على ذلك: قول زيد بأنه كتب كتاباً، فلا بد والحال هذه أنه كتب هذا الكتاب بالقلم الذي خضع بدوره إلى مشيئة يد الكاتب بالحركة، لذا لا يصح القول بأن القلم هو الذي كتب لأنه لا يمتلك الفاعلية على نحو الاستقلال، بل الصحيح أن نقول: إن زيدا هو الكاتب، وهذه الأدلة العقلية غير مستقلة بذاتها، بل هي مؤيدة من الشرع، وفي القرآن الكريم العديد من الآيات التي تصرح بها وتعضدها، ومن هذا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(١)، وهذا الأمر مورد إجماع الأمة الإسلامية ولا يختلف فيه اثنان منها، في حين عبّر القرآن الكريم في بعض الآيات بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١﴾، وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ ﴿٢﴾، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّئُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿٣﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ نُوَفِّئُهُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفُسِهِمْ﴾ ﴿٤﴾.

فإن هذه الآيات لا تتعارض في ما بينها لجهة حصول الوفاة ونسبتها إلى المولى ﷺ، بل الأمر كله لله، فهو المحيي وهو المميت، وهو تبارك وتعالى يدبر الأمور كيف يشاء، ويوكل من خلقه من يشاء بما يشاء، فهؤلاء الملائكة مخلوقين لله يأترون بأمره، وينفذون مشيئته متى أراد وحيث أراد وكيفما شاء، فهذا ملك الموت يتصفح وجوه العباد خمس مرات في اليوم منتظراً الإذن الإلهي بقبض روح فلان أو فلان، وهذا مورد إجماع المسلمين كافة، وقوله تعالى: ﴿لَهُ مِعْقَبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ ﴿٥﴾، فما هم إلا مجموعة من الملائكة الكرام الذين يدرأون المخاطر والمهلكات عن ابن آدم بالإذن الإلهي، حتى إذا

- (١) سورة السجدة، الآية: ١١.
- (٢) سورة الأنعام، الآية: ٦١.
- (٣) سورة النحل، الآية: ٣٢.
- (٤) سورة النساء، الآية: ٩٧.
- (٥) سورة الرعد، الآية: ١١.

جاء القضاء الذي لا بد منه انسلخوا عنه وتركوه للمشيئة الإلهية النافذ حكمها في كل الأشياء.

لذلك فإن كل هؤلاء الملائكة وغيرهم ما هم إلا مجموعة من الوسائط جعلها الله سبحانه بينه وبين عباده لإجراء مقتضيات الحكمة الإلهية، وهذا الأمر لا يؤثر في وحدانية الباري جل علاه لأنهم مجموعة من الأسباب التي تفتقر دوماً إلى مسببها الغني عن كل شيء، فلا استقلال لهم بالتدبير بل بأمره يصدعون، والله الرحمان الرحيم، كتب على نفسه الرحمة، ومن أبرز مظاهر هذه الرحمة الإلهية بعثة الأنبياء والرسول لنشر الهداية والدعوة إلى طاعته لما في ذلك من الخير الوفير والنجاح العظيم لابن آدم في الدنيا والآخرة.

وهذا رسول الله ﷺ يصرح بالقول: «إنما أنا رحمة مهداة»، وهذه الرحمة التي كان سببها رسول الله ﷺ لا تؤثر في وحدانية المولى لأن سبحانه هو المسبب الوحيد لها، ودور النبي الأعظم ﷺ يقتصر على حمل الرسالة وأداء الأمانة، ونقل الهدية والبشارة، فهو بذلك واسطة بين الله والعباد، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾^(١)، فإنه لا يتصور فيه أن الطاعة للرسول هنا على نحو الاستقلال بل إنما هي طاعة واحدة.

(١) سورة النور، الآية: ٥٤.

فإطاعة الرسول هي طاعة لله، وإطاعة الله هي طاعة للرسول، لأن التصديق بالشيء يستلزم التصديق بمقدماته ولوازمه، فكل هذه الأمور تقود العقل إلى الإقرار بوجود وسائط لله بينه وبين عباده، هي محل رحمة وفيض إلهية جعلها الله سبحانه في جملة الأسباب الكثيرة والمتنوعة، وفي تناول ابن آدم للتزود منها في كافة مراحل عمره، فالله هو المعطي وهو المانع وهو الضار وهو النافع، وهو على كل شيء قدير، لهذه الأسباب جميعاً فإن الأدلة العقلية مع ما يعضدها من الأدلة الشرعية لا ترى بأساً من التوسّل لهذه الأسباب المسببة من الله، لأن التوسّل بها إنما هو توسّل بالرحمة الإلهية لا شيء آخر فلا ثنائية هنا ولا شرك كما توهم البعض.

لهذا لا يمكن القول بأن التوحيد الكامل يستلزم عدم التوسّل أو إستعانة إنسان بغير الله، ذلك لأن التوسّل بأولياء الله هو بمعنى: أن الله تعالى جعل الولي وسيلة للتوصل إلى رحمته تعالى، وقد أمر سبحانه أن يتوسّل المتوسّل بهذه الأسباب، فهذا التوسّل كما أنه لا ينافي التوحيد، فإنه يعتبر أيضاً من شؤون التوحيد في العبادة والطاعة، إذ أنه يتم بأمره تعالى، وفي ذات السياق، وبعد تقرير ما تقدم يبرز سؤال لا بد من طرحه ليجاب عليه وهو: بعد الاستدلال العقلي - السابق -

بجواز التوسّل بهذه الأسباب أو الذوات بوجودها أي بمعنى حضورها في عالم الوجود، فما هو الدليل العقلي القائل بجواز الاستمرار بالتوسّل بها على فرض انتفاء وجودها؟ وعدم بقاء أشخاصها في عالم الوجود؟

إن طرح هذا السؤال يقودنا بالضرورة إلى التعرض لمسألة النفس، هذه المسألة التي أخذت حيزاً مهماً من اهتمام الفلاسفة والمتكلمين المسلمين، وخاصة أن التوسّل - موضوع الكتاب - متعلق بأسباب وذوات من ذوي الأنفس، ولقد بحث العلماء كثيراً ومنذ زمان قديم في النفس أو الروح، وخاصة حكماء الإسلام، إذا اهتموا اهتماماً كبيراً بهذا الموضوع وخصصوا في كتبهم الفلسفية فصولاً مهمة للبحث فيه، وكتبوا رسائل وكتباً مستقلة في هذا المجال، وناقشوا بأدلة كثيرة، تلك الآراء التي تذهب إلى أن الروح عرض من أعراض البدن، أو أنها صورة مادية منطبعة في مادة البدن.

ومن الواضح أن البحث بتوسع في هذا الموضوع يخرجنا عن أساس موضوع الكتاب، وتعرضنا له إنما جاء في سياق الاستدلال العقلي على جواز التوسّل لذوي الأرواح بعد الموت لذلك نبحت فيه باختصار وبقدر الحاجة، ويكفي في هذا المجال معرفة أن الإنسان يملك نوعين من الإدراك: أحدهما يحتاج فيه إلى الحواس، والثاني لا يحتاج فيه إلى

الحواس، فأما الذي لا يحتاج فيه إلى الحواس فهو ما يعبر عنه بالروح أو النفس وبالتعبير الفلسفي (الأنا) ولتوضيح الفرق بينهما - بإيجاز - يؤكد على ملاحظة التبدل والتجدد الطارىء على البدن (المادة) وقبوله للتجزئة والتركيب على مر السنين، في حين نرى أن الروح أو النفس موجود يبقى محتفظاً خلال عشرات السنين بوصف الوحدة والشخصية الحقيقية، وهذه الأنا موجود بسيط لا يقبل التجزئة والتقسيم، فلا يمكن مثلاً تقسيمه إلى نصفين.

وهذه الروح هي التي تبقى بعد الموت، ولا تفتنى وهي خالدة إلى ما شاء الله، والدليل العقلي على عدم فنائها كما جاء في شرح تجريد الاعتقاد^(١): «.. استدلووا على امتناع فنائها بأن الإعادة واجبة على الله تعالى.. لو عدمت النفس لامتنعت إعادتها لما ثبت من امتناع إعادة المعدوم فيجب أن لا تفتنى»، وتوضيح هذا القول: إن من مقتضيات العدل الإلهي مجازاة الظالمين وإثابة المحسنين، لذلك لا بد من عودة هذه الأرواح لتلقى الجزاء إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهذه العودة لا بد أيضاً من أن تكون لذات هذه الأرواح، لأنها لو

(١) الحلبي ابن المطهر، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، مرجع سابق،

أعدمت ثم بعثت فهي إما خلق جديد أو مثال عن هذه الروح، وبكلا الوجهين لا تكون الروح هي ذاتها لتنال الجزاء، فإنها لا تفنى.

وهذه الروح التي لا تفنى بالموت تنتقل إلى عالم فاصل بين عالم الدنيا وعالم الآخرة، وهو ما يعرف بعالم البرزخ، وأشبه ما يكون عليه هذا العالم الفاصل بمحطة تقف فيها الروح خلال انتقالها من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة حيث يتحدد مصيرها ومثواها، ويعضد هذا القول ويضفي عليه شرعية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١)، وهذه العنودية «عند ربهم» دلالة على المكان الخاص ويعضد قوله تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ ومن المعروف لدى جميع المسلمين والمتفق عليه أن تمام الرزق والاستحقاق والثواب إنما يكون في الجنة التي وعد الله بها عباده، فكيف يرزق الميت قبل قيام محكمة العدل الإلهية ليجزي الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين والكافرين؟

يقول المفسرون^(٢): «إن هذا الرزق هو حالة من الاستبشار

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٢) راجع على سبيل المثال، الطبرسي (أبو علي الفضل بن الحسن)، مجمع البيان في تفسير القرآن، مرجع سبق ذكره، ٤٤٣/٢.

والاطمئنان الحاصل من خلال رؤية الميت مكانه كذلك رؤية ما ينتظره من النعيم في الجنة»، إذن هذه الروح لا تفنى، وتنتقل بالموت إلى عالم فاصل، وهو عالم البرزخ، والحديث عن الروح هنا هو لمطلق الروح، أو عن الروح بالمعنى الأعم، أما عن الأرواح المباركة أعني بذلك أرواح الأنبياء عليهم السلام والأولياء (رضوان الله عليهم) فلا يوجد دليل يمنع بعد ثبوت نبوتهم وولايتهم من تديير إلهي خاص بهم.

هذا بالنسبة إلى الروح أما بالنسبة إلى الجسد فمن المعروف والمتفق عليه لدى المسلمين كافة: «أن الله حرم على الأرض لحوم أجساد الأنبياء والأولياء»^(١) لعلو شأنهم وسمو كرامتهم عنده، وهذا إن كان جائزاً بالنسبة إلى الأجساد فهو من باب الأولوية جائز بالنسبة إلى الأرواح، مما يعني أن التوسّل بالحي أو بالميت من الأنبياء أو الأولياء جائز لأن وجودهم محفوظ بقسميه: البدن والروح، وهذه كرامة وتفضل

(١) وهو ما رواه البيهقي بأسانيد صحيحة عن النبي ﷺ أنه قال: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون»، وورد أيضاً: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، وتأكيد ذلك ما جاء في الصحيحين: «أن الله بعث لنبينا جميع الأنبياء ليلة الإسراء فصلّى بهم إماماً ركعتين، والصلاة ذات ركوع وسجود وهي تستدعي جسداً حياً!»، راجع: دياب المهداوي، زيارة قبر النبي والتوسّل به، دار المحجة البيضاء، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٤٩ - ٥٠.

إلهي عليهم، ومن الجدير بالذكر أن العلم الحديث قد تطور إلى درجة عالية تمكن من خلاله العلماء من استعمال الوسائل العلمية والأدوات الفنية لمعرفة هذه الحقائق، واعتبروا العلم بها علماً جامعياً، وأنشأوا له الكليات، ففي الطب مثلاً تطور العلم بالجينات الوراثية وهو ما يعرف بـ DNA المستخرجة من أي جزء من أجزاء الجسم مهما تناهى في الصغر بحيث يمكنهم من خلال هذه الجينات المحفوظة بخلايا هذا الجسد إعادة استنساخها من خلال عملية معقدة.

أما من جهة أخرى فقد أصبح هناك ما يعرف بالعلم الروحي الحديث الذي يعتني بدراسة ثبوت الحياة بعد الموت، واتصال الأحياء بالأموات، وسمي علماً لأن العلماء قد استعملوا فيه نفس البحث والأسلوب الذي استعملوه في بحث ظواهر الطبيعة، فسبحان من خلق ثم هدى ومن علم الإنسان ما لم يعلم!

◀ ج - الأحكام تابعة للقصد (المقصودات)^(١):

إن القول بأن الأحكام تابعة للقصد أو المقصودات إنما هو قول على سبيل المسامحة، إذ لا يوجد مثل هذا المبدأ في

(١) منشأ هذا الفهم يمكن ملاحظته من خلال ما عبّر عنه الشيخ ابن حجر الهيتمي في حاشية الإيضاح في مناسك الحج، ص ٢١٤، فصل: استحباب زيارة قبر النبي ﷺ، حيث قال: «... ثم الحديث يشمل زيارته حياً وميتاً ويشمل =

كتب العقائد ولا في كتب الفقه والأصول سوى القاعدة الفقهية المندرجة في كتب المعاملات تحت عنوان: العقود تابعة للقصد، وتعرضي لها إنما هو تمهيد أولي للإطالة على موضوع الفصل الثالث والرابع من هذا الكتاب، حيث أن هناك الكثير من الممارسات تجري بعنوان: جواز التوسّل قد تلتقي أحياناً مع روح التشريع، وقد تفرق في أحيان كثيرة عنه، الأمر الذي قد يدعم الآراء القائلة بعدم جواز التوسّل بالأنبياء ﷺ والأولياء (رضي الله عنهم)، وخاصة أننا إذا عدنا إلى هؤلاء الذين يمارسون هذه الأساليب بالتوسّل لنسألهم عن جواز عمل بعض هذه الممارسات لأجابونا: إنما الأعمال بالنيات، أو بتعبير آخر، فطالما كان قصدنا التوسّل إلى الله بهذه الذوات المباركة ولو بأسلوب خاص بعض الشيء فالحكم علينا يكون لجهة قصدنا لا لجهة فعلنا وممارساتنا.

ويرد على هذا أن الأحكام ليست مجهولة لتجري مجرى القصد، بل على العكس يجب على الأعمال والقصد أن تجري وفق الأحكام، وهذه النقاشات وهذه الممارسات

= الذكر والأنثى، الآتي من قرب أو بعد، فيستدل به على فضيلة شد الرحل لذلك، وندب السفر للزيارة إذ للوسائل حكم المقاصد»، راجع: عقد الدرر في فضل زيارة خير البشر، إعداد: جمعية المشاريع، بيروت، ٢٠٠١، ص ٣٢.

ساهمت في بروز أفكار علمية جديدة عملت على بلورة وتوضيح هذه المسألة، كما أسهمت في إعادة صياغة بعض هذه المفاهيم وفق منهج جديد، نتعرض له لاحقاً في الفصل الرابع (محاولات لمعالم جديدة)، وخاصة أن هذه المسألة تشكل برزخاً بين القائلين بالجواز وبين المنكرين، وعليه سنكتفي بهذا القدر من الإضاءة حول هذه النقطة، تاركين التفصيل لحينه في الفصول اللاحقة.

٢ - الأدلة الشرعية

قبل الشروع في استعراض الأدلة الشرعية التي تدل على القول بجواز التوسّل، رأينا أن نوضح بشكل عام، المقصود منها، فالأدلة الشرعية هي تلك الأدلة التي صرّح بها القرآن الكريم، أو التي جاءت بها السنّة المطهّرة، أو تلك التي استنبطت من القرآن والسنّة، والغاية من معرفة الدليل الشرعي هو حصول المسلم المكلف على القطع والاطمئنان بأن أفعاله التي يقوم بها هي مطابقة لما أمر به الشارع أو أنها تحظى برضاه، وهذه الأفعال التي يتحرك فيها هذا المكلف هي:

١ - واجبة: كالصلاة والصيام (الواجبين).

٢ - مستحبة: كصلاة الليل أو النوافل أو الصيام المستحب أو الصدقة.. إلخ.

٣ - مباحة: كاختيار وسيلة النقل في السفر مثلاً: الطائرة أو السيارة أو الباخرة.. إلخ.

٤ - مكروهة: كالإكثار من الطعام والشراب.. إلخ.

٥ - محرمة: كالزنا أو شرب الخمر. . إلخ.

وفي الصدر الأول للإسلام كان من السهل على المكلف الوصول إلى الحكم الشرعي لوجود النبي ﷺ والصحابة الأجلاء ﷺ، ومع ابتعاد المسلمين عن زمن هؤلاء، والذي يعبر عنه بزمن النص، ومع استمرار حاجة المسلمين لمعرفة هذه الأحكام، اضطر الناس للرجوع إلى العلماء الذين استقوا علومهم من الآخرين، وصولاً إلى الذين تلقوا علومهم مباشرة من زمن النص.

يبدأ أن الخلاف الذي نشأ بعد وفاة النبي محمد ﷺ بخصوص الخلافة، مع ما رافقه من اصطفاة الناس حول بعض الشخصيات دون البعض الآخر، ساهم في وجود عدة مصادر عملت على نقل الأحكام الشرعية للمسلمين وفق الأدلة المختلفة التي حظيت باعتبارهم لأسباب متعددة، ومع تطور العلوم التي تعنى باستنباط الحكم أو بيان الدليل الشرعي، اختلفت الآراء حول العديد من المسائل لأسباب تقنية وعلمية في كثير من الأحيان، حتى داخل المذهب الواحد، لذلك فإن ما سننقله من أدلة شرعية ليس رأي فئة معينة أو مذهب معين، بل هو رأي القائلين بالجواز في كافة الفرق والمذاهب الإسلامية ما عدا فريق واحد سنتعرض له لاحقاً في الفصل القادم.

◀ أ - القرآن الكريم:

وردت في القرآن الكريم العديد من الآيات الدالة على جواز التوسّل ومشروعيتها، وهي تظهر في أشكال ثلاثة:

١ - قبل الخلق.

٢ - بعد الخلق وأثناء الحياة.

٣ - أثناء الحياة وبعد الوفاة.

أما الأول: أي قبل الخلق والإيجاد، نجد قوله تعالى: ﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١)، وقيل في تفسير هذه الآية: «إن آدم رأى مكتوباً على العرش اسماً معظماً مكرماً، فسأل عنه، ف قيل له: هذا اسم أجلّ الخلق منزلة عند الله تعالى: محمد ﷺ، فتوسل آدم ﷺ إلى ربه به في قبول توبته، ورفع منزلته»^(٢).

أما الثاني: أي بعد الخلق وأثناء الحياة، قوله تعالى: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣)، وقيل في تفسير هذه الآية: «إنه لما

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٧.

(٢) الطبرسي (أبو علي الفضل بن الحسن)، مجمع البيان في تفسير القرآن مرجع سابق، ١/١٧٥، بتصرف.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٣.

عرّفهم نفسه، سألهم عن أبيه، فقال: ماذا فعل أبي بعدي؟ قالوا: ذهب عيناه، فقال: اذهبوا بقميصي هذا، واطرحوه على وجهه، يعد مبصراً كما كان من قبل، وبعد ذكر قصة هذا القميص المروية عن الواحدي بإسناده يرفعه إلى أنس بن مالك، عن رسول الله ﷺ، قال مجاهد: أمره جبرائيل ﷺ - ليوسف - أن أرسل إليه قميصك، فإن فيه ريح الجنة، لا يقع على مبتلي، ولا سقيم إلا صح وعوفي»^(١)، فعودة البصر ليعقوب ﷺ كانت بإذن الله وتوسّل قميص يوسف ﷺ .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ﴾^(٢)، فقد صرّحت الأحاديث المتواترة وإجماع أغلب المفسرين أن المقصود من المودة في القربى هو حب أهل بيت الرسالة، «عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما نزلت الآية قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال: علي وفاطمة وإبناهما»^(٣)، ولقد اعتبر القرآن الكريم في إحدى الآيات، مودة أهل الرسالة إحدى الطرق التي تقود الإنسان إلى

(١) الطبرسي (أبو علي الفضل بن الحسن)، مجمع البيان في تفسير القرآن، مرجع سابق، ٤٥٢/٥ .

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣ .

(٣) الطبري (محب الدين أحمد بن عبد الله)، ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٤، ص ٢٥ .

رضى الله تعالى، يقول تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾^(١)، فكلما وضعنا هاتين الآيتين بجوار بعضهما، فإننا نتوصل إلى نتيجة مفادها: أن المودة في القربى هي نفس السبيل الذي ورد في هذه الآية، وأن مودة كهذه، هي طريق السعادة الواسع، وأن الهدف من الرسالة قيادة الناس إلى هذه السبل والطرق، وعلى هذا فإن مودة هؤلاء (رضوان الله عليهم) توجب فائدة عظيمة ترجع اثارها على الإنسان المحب، وليس على صاحب الرسالة، وإلى هذا أشار تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ﴾^(٢).

وعلى هذه الأسباب يمكن للمودة في القربى أن تكون إحدى الوسائل التي دعانا إليها المولى سبحانه في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(٣)، ولو توّسلنا إليه بالنبي ﷺ وآله (رضوان الله عليهم)، فإننا في الواقع نتمسك بوسيلة كهذه.

أما الثالث: أي أثناء الحياة وبعد الوفاة، قوله تعالى:

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٧.

(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٧.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(١)، قال الشيخ/مغنية في شرح هذه الآية: «... ظلموا أنفسهم، حيث عرضوها للعذاب، والهلكة بما اقترفوا من ذنوب، وظلموا الله أيضاً بتجاوز حدوده، وعصيان أوامره، وظلموا النبي ﷺ لأنهم رفضوا حكمه، وارتضوا حكم الطاغوت، وأظهروا له خلاف ما يضمرون، وعلى الرغم من هذا كله فإن الله قد فتح لهم باب التوبة، وما عليهم إلا أن يلجوه، ويطلبوا المغفرة، فإن فعلوا أدخلهم في رحمته، وإن استنكفوا فلا يجدون من دونه ولياً ولا نصيراً»^(٢). وباب التوبة هنا، مفتوح إلى يوم القيامة لخاتمية النبوة والرسالة، وهذا ما دعا الإمام/السبكي^(٣) إلى القول: «دلّت الآية على الحث على المجيء إلى الرسول ﷺ والاستغفار عنده واستغفاره لهم، وذلك وإن كان ورد في حال الحياة، فهي رتبة لا تنقطع بموته تعظيماً له...»، وتابع: «إن التوسّل بالنبي ﷺ جائز في كل حال، قبل خلقه وبعد خلقه، وفي مدة حياته في الدنيا وبعد موته، وفي مدة البرزخ وبعد

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٢) محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، مرجع سبق ذكره، ٣٦٩/٢.

(٣) هو الشيخ الإمام الفقيه المحدث علي بن عبد الكافي تقي الدين السبكي الشافعي، المتوفى سنة ٧٥٦هـ.

البعث، وفي عرصات القيامة والجنة^(١)، ثم ساق الأدلة الداعمة لرأيه، والمفندة لآراء المعترضين، وللإستزادة حول هذا الأمر يمكن للقارئ الكريم العودة إلى المصدر المذكور.

هذا، ولقد وردت آيات عديدة في الذكر الحكيم كما في سورة يوسف: الآية (٩٨ و ٩٩)، وسورة التوبة: الآية (١١٥)، يستفاد منها القول بجواز التوسّل، ويستدل بها على تأثير دعاء الأنبياء في حق الآخرين، تركنا البحث فيها تجنباً للإطالة، ورغبة في الاكتفاء بما قد تم عرضه.

◀ ب - السنّة المطهّرة:

تعريف السنّة وحقيقتها وحجتها:

السنّة في اللغة هي: الطريقة السالكة، ومن ذلك قول القائل: سنّنت الشيء بالمسّن إذ أمرته عليه حتى يؤثر فيه سنّاً أي طريقاً، وتطلق (السنّة) أيضاً على معنى الدوام، فيقال: سننت الماء، إذا واليت صبه، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل عليها، ومن سنّ سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

(١) تقي الدين السبكي، شفاء السقام في زيارة خير الأنام، مرجع سبق ذكره،

والسنة في اصطلاح الأصوليين، هي: قول المعصوم محمد ﷺ وفعله وتقريره، وهي بهذا المعنى تكون مطابقة لمعناها اللغوي، بمعنى أنها طريقة المعصوم، قولاً وفعلاً وتقريراً^(١)، وقال الشيخ المظفر حول هذا الأمر: «السنة في اصطلاح الفقهاء: قول النبي أو فعله أو تقريره، ومنشأ هذا الاصطلاح أمر النبي ﷺ بإتباع سنته فغلبت كلمة السنة حينما تطلق مجردة عن نسبتها إلى أحد على خصوص ما يتضمن بيان حكم من الأحكام من النبي ﷺ سواء كان ذلك بقول أو فعل أو تقرير»^(٢).

وقد برز الخلاف، بين علماء الإسلام، حول شمولية هذه السنة ومدى اتساع دائرتها، وعلى هذا، فإن تعريف السنة أخذ اتجاهات ثلاثة^(٣):

الأول: يعتبر أن النبي ﷺ معصوم، في حال التشريع،

(١) صدر الدين فضل الله، التمهيد في أصول الفقه، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٧، والقول: ما قاله أو صرح به المعصوم محمد ﷺ والفعل: هو ما قام به من عمل، والتقرير هو ما سمع به الرسول أو شاهده ولم يعلق عليه سلباً أو إيجاباً، فهو بهذه الحالة شبيهة بالموافقة الضمنية.

(٢) محمد رضا المظفر، أصول الفقه، الطبعة الثانية، مؤسسة الأعلمي، ١٩٩٠، ٥٥/٢.

(٣) صدر الدين فضل الله، التمهيد في أصول الفقه، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٩ - ١٥٠ بتصرف.

أي في كونه مبلغاً للشريعة فقط، وبالتالي فإن ما صدر عنه، في حالته هذه فقط، هو سنة، وهو مذهب أكثر علماء المذاهب السنية.

الثاني: يعتبر أن النبي ﷺ معصوم في كل حالاته، وكذلك الأئمة من آله من بعده، وبالتالي فإن كل ما صدر عنه وعن الأئمة من آله ﷺ، هو سنة، وهذا مذهب الشيعة الإمامية.

الثالث: توسع في التعريف، ليشمل النبي ﷺ وصحابته الذين عاشوا معه من غير ادعاء لعصمة الصحابة، وهذا مذهب بعض العلماء من الاتجاه السني.

ولا يخفى، أثر هذا الخلاف على فهم معنى السنة، وعلى تحديد مساحتها، فالفرق واضح بين من يرى أن السنة تقتصر على ما صدر عن النبي ﷺ في حالة التشريع والتبليغ، على مدى عشرين سنة فقط، وبين من يرى أنها تمتد إلى كل حالاته، وأنها تشمل أيضاً، ما صدر من بعده عن الصحابة والتابعين، على مدى أكثر من ٣٠٠ سنة، كما هو مقتضى الاختلاف بين الاتجاهين الأول والثاني، هذا فضلاً عن الفرق الواسع بين الاتجاهين الثاني والثالث، حيث فرّع كل منهما إلى جهة مختلفة تماماً، سواء على صعيد القاعدة التي أسس عليها التفرع، أو الأشخاص الذين شملهم التفرع.

وعليه، أصبح في الإمكان ملاحظة الاختلاف الحاصل حول مدلول السنّة لجهة الطرق المعتمدة للوصول إليها، فبين من اقتصر على أخذ ما ورد عن النبي ﷺ بمراحل محددة في حياته، وبين من توسع حتى شملت كامل حياته الشريفة مع حياة الأئمة ﷺ من آل الرسول ﷺ، وآخر عمم وتوسع حتى شمل الصحابة والتابعين، وعلى هذا يمكن القول: بأن معظم الاختلافات الفقهية الحاصلة بين العلماء، فإنها تكاد تكون محصورة باختلاف المصدر أو الطريق المؤدي إلى السنّة.

وعلى هذا الأساس فلقد تعددت الروايات التي يستفاد منها القول بجواز التوسّل، وها نحن نتعرض لها تباعاً بحسب ما جاءت به وفق طرقها المختلفة.

◀ - الأدلة من السنّة:

في حديث أخرجه الطبري في المعجم الصغير والحاكم في مستدركه، وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء، والبيهقي في دلائل النبوة، وابن عساكر الدمشقي في تاريخه، والسيوطي في تفسير الدر المنثور، والألوسي في تفسير روح المعاني، عن عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ قال: «لما أذنب آدم الذي أذنبه، رفع رأسه إلى السماء وقال: أسألك بحق محمد إلا

غفرت لي، فأوحى الله إليّ: ومن محمد! فقال: تبارك اسمك، لما خلقت رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب: لا إله إلا الله ومحمد رسول الله». فقلت: إنه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى إليّ: إنه آخر النبيين من ذريتك، ولولاه ما خلقتك»^(١).

- أورد الإمام السبكي في شفاء السقام حديثاً عن عثمان بن حنيف أنه قال: «أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: إن شئت وإن شئت صبرت، فهو خير لك، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي ليقضي لي، اللهم شفّعه في»، وزاد محمد بن يوسف في روايته فقال: فقام وقد أبصر، وقال ابن حنيف: فوالله ما تفرقنا ولا طال الحديث «حتى دخل علينا كأنه لم تكن به ضرر»^(٢).

(١) جعفر السبحاني، الوهاية في الميزان، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٧٠.
 (٢) تقي الدين السبكي، شفاء السقام في زيارة خير الأنام، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٧، والزيادة الأخيرة التي بين القوسين لم ترد في متن الحديث، وإنما نقلناها من الشيخ جعفر السبحاني في كتابه: الوهاية في الميزان بنقله عن سنن ابن ماجه.

وعلق الإمام السبكي على هذا الحديث لجهة السند بالقول: «وقد كفانا الترمذي والبيهقي رحمهما الله بتصحيحهما مؤونة النظر في تصحيح هذا الحديث»، ثم قام الإمام السبكي بشرح هذا الحديث والتعليق عليه بالقول: «وهو جواز التوسّل إلى الله بغيره»، بمعنى السؤال به كما علّمه النبي ﷺ، وذلك زيادة على طلب الدعاء منه، فلو لم يكن في ذلك فائدة لما علّمه النبي ﷺ ورشده إليه ولقال له: إني قد شفعت فيك.

ولكن لعله ﷺ أراد أن يحصل من صاحب الحاجة التوجه بذل الاضطرار والافتقار والانكسار، مستغيثاً بالنبي ﷺ فيحصل كمال مقصوده، ولا شك أن هذا المعنى حاصل في حضرة النبي ﷺ وغيبته، في حياته وبعد وفاته، فإننا نعلم شفقته على أمته ورفقه بهم ورحمته لهم واستغفاره بجميع المؤمنين وشفاعته، فإذا انضم إليه توجه العبد به حصل هذا الغرض الذي أرشد النبي ﷺ الأعمى إليه^(١).

- وفي حديث آخر رواه السبكي عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: «جاء إعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أتيناك وما لنا صبي يصطبج، ولا بعير يئط، وأنشد:

(١) تقي الدين السبكي، شفاء السقام، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٨.

أتيتك والعذراء تدمي لبانها
وقد شغلت أم الصبي عن الطفل
وألقى بكفيه الفتى لاستكانة
من الجوع هوناً ما يُمر ولا يحلى
وليس لنا إلا إليك فرارنا
وأين فرار الناس إلا إلى الرسل؟

فقام رسول الله ﷺ يجر رداؤه حتى صعد المنبر، فرفع يديه ثم قال: «اللهم اسقنا» وذكر الدعاء إلى أن قال: فما رد النبي ﷺ يديه حتى ألقت السماء بأوراقها - أي المطر - وجاء أهل البطانة يضحجون: الغرق الغرق . . فقال النبي ﷺ: «حوالينا ولا علينا، فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالإكليل، وضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: لله درّ أبي طالب لو كان حياً قرّت عيناه، من ينشدنا قوله: فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا رسول الله كأنك تريد قوله:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يطوف به الهلاك من آل هاشم
فهم عنده في نعمة وتواصل

كذبتهم وبيت الله نبزي محمداً
ولما نطاعن عن دونه وناضل
ونسلمه حتى نصرع حوله
ونذهل عن أبنائنا والحلائل
فقال رسول الله ﷺ: «أجل»^(١).

وفي حديث نقله الشيخ دياب المهداوي عن البخاري
قال^(٢): إن رسول الله ﷺ أمر أبا طلحة الأنصاري - وذلك
بعد أن حلق رأسه الشريف - أن يقسم شعره بين الناس،
وعلق الشيخ المهداوي على هذا الحديث: «والشعر لا يقصد
للأكل، وإنما يقصد في هذه المناسبة للتبرّك، ونبينا ﷺ لم
يقبل لأصحابه تبركوا به في حياتي ولا تبركوا به بعد مماتي،
بل الثابت أنهم ظلوا يتبركون ويتوسلون به بعد مماته.

ففي جامع الصحيحين للحميدي عن عبد الله بن وهب
قال: أرسلني أهلي إلى أم سلمى زوجة النبي ﷺ بقدرح من
ماء، فجاءت بجلجل من فضة فيه شعر من شعر النبي ﷺ،
فكان إذا أصاب إنسان عين أو شيء بعث بإناء إليها

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٦٠ - ١٦١.

(٢) دياب المهداوي، زيارة قبر النبي والتوسّل به، مرجع سبق ذكره، ص ٧٨.

فخضخضت له من ذلك الجُلجل فشرّب منه، وأضاف أنه روى في البخاري عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أنه أوصى أن تدفن شعرات للنبي ﷺ معه.

- وفي الصحيحين عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان ينام عندها: فكانت تأخذ من عرقه الشريف، فاستيقظ فقال: «ماذا تصنعين يا أم سلمة؟» فقالت: يا رسول الله.. نرجو بركته لصبياننا، فقال: أصبت^(١)، وعلّق ابن ملك في شرح المشكاة على هذا الحديث بالقول: وفي ذلك دليل على جواز التقرب بأثار المشايخ والعلماء.

- وقال الإمام السبكي في شرح قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾^(٢).. الآية صريحة في ذلك، أي جواز الإتيان للنبي وطلب المغفرة عنده، وكذلك يجوز ويحسن مثل هذا التوسّل بمن له نسبة من النبي ﷺ كما كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا حدث قحط استسقى بالعباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ويقول: اللهم إنا كنا إذا قحطنا توسّلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسّل

(١) دياب المهداوي، زيارة قبر النبي والتوسّل به، مرجع سبق ذكره، ص ٧٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٤.

إليك بعم نبينا محمد ﷺ فاسقنا، قال: فيسقون، رواه البخاري عن حديث أنس^(١).

نقل الشيخ محمد حمود عن ابن حجر العسقلاني في فتح الباري قوله: إن العباس دعا إلى الله تعالى بقوله: «. . . وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك»^(٢)، فإذا كانت مكانة العباس ﷺ هذه لكونه عم النبي ﷺ، فما هو حال أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا؟

نقل ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة عن الشافعي (إمام الشافعية) هذين البيتين من الشعر:

آل النبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي

أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمنى صحيفتي^(٣)

هذه الأحاديث والروايات التي استعرضناها هي غيض من فيض بحيث أن القارئ يجد العشرات مثلها القائلة بجواز التوسّل، اعتماداً على كتب التاريخ والحديث لأهل السنّة.

(١) تقي الدين السبكي، شفاء السقام في زيارة خير الأنام، مرجع سبق ذكره، ص ١٦٢.

(٢) محمد جميل حمود، الفوائد البهية في شرح عقائد الإمامية، مركز العترة، ١٩٩٨، ٢/٤٠٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٠٣.

- يقول الإمام علي أمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في دعاء له: بحق محمد وآل محمد عليك، وبحقك العظيم عليهم أن تصلي عليهم كما أنت أهلهم، وأن تعطيني أفضل ما أعطيت السائلين من عبادك الماضين من المؤمنين، وأفضل ما تعطي الباقين من المؤمنين.. (١)

- ويقول الإمام الحسين بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في دعائه يوم عرفة: اللهم إنا نتوجه إليك في هذه العشية التي فرضتها وعظمتها، بمحمد نبيك ورسولك وخيرتك من خلقك (٢).

- ويقول الإمام علي بن الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في دعائه بمناسبة حلول شهر رمضان: اللهم إني أسألك بحق هذا الشهر وبحق من تعبد فيه من ابتدائه إلى وقت فناءه من ملك قربه أو نبي أرسلته أو عبد صالح اختصته (٣).

ويقول الإمام زين العابدين علي بن الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في دعائه عند ذكر محمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وآله (رضوان الله عليهم أجمعين): اللهم يا من خص محمداً وآله بالكرامة، وحباهم بالرسالة،

(١) جعفر السبحاني، الوهاية في الميزان، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٨.

(٢) عباس القمي، مفاتيح الجنان، دار الرسول الأكرم، بيروت، ١٩٩٦، ص ٣٦٨.

(٣) الإمام السجاد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، الصحيفة السجادية الكاملة، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٨٨، دعاء رقم ٤٤.

وخصصهم بالوسيلة، وجعلهم ورثة الأنبياء، وختم بهم الأوصياء والأئمة.. (١).

وبعد.. فإن هذه الأحاديث والروايات والأدعية هي عينة من نماذج عديدة تزخر بها كتب ورسائل القائلين بجواز التوسّل عند السنّة والشيعّة وغيرهم، اقتصرنا فيها على عرض ما تقدّم حرصاً منا على عدم الإطالة.

◀ ج - سيرة المسلمين:

الهدف من استعراض سيرة المسلمين عبر القرون الماضية، هو تسليط الضوء على تعاطيهم مع مسألة التوسّل، ولإبراز الرأي حولها من خلال ما قالوه أو فعلوه، وهو إن لم يكن بحد ذاته دليلاً مستقلاً على الجواز أو على البطلان، لكنه يساهم في دعم وتعزّيد الرأي المبحوث في هذا الفصل، بيّد أن التعرض لهذه السيرة يتطلب بحث ومراجعة فترة زمنية طويلة، الأمر الذي لا نتمكن من القيام به في هذه الفترة من جهة، وكذلك سوف يؤدي بنا إلى الخروج عن موضوع الكتاب، وعليه قمنا باستعراض بعض الروايات، أو نقل بعض

(١) الإمام السجاد عليه السلام، الصحيفة السجادية، المرجع السابق، ص ٢٦٤، دعاء رقم ٥٧.

الأحداث التي جرت، والتي تتصل بمسألة التوسّل والواردة في كتب بعض القائلين بجوازه:

- روى الإمام السبكي عن الطبراني بسنده عن عثمان بن حنيف: أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: إيت الميضأة فتوضأ ثم أتت المسجد فصل فيه ركعتين، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن تقضي حاجتي وتذكر حاجتك، فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتى باب عثمان بن عفان فجاءه البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة، فقال ما حاجتك؟ فذكر حاجته وقضاها له، ثم قال له: ما ذكر حاجتك حتى كان الساعة!، وقال: ما كانت لي من حاجة فأذكرها، ثم إن الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف، فقال له: جزاك الله خيراً، ما كان ينظر في حاجتي، ولا يلتفت إلي حتى كلمته في، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلمته، ولكنني شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أو تصبر؟ فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد وقد شق علي، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أتت الميضأة فتوضأ ثم

صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات، فقال ابن حنيف... . فو الله ما تفرقنا و طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قط^(١).

وعثمان بن حنيف هو من الصحابة، ومن رواية الأحاديث الثقات الذين نقل عنهم العديد ممن عنوا بجمع الأحاديث المطهرة، ولقد أفرد الطبراني في المعجم الكبير ترجمة لعثمان بن حنيف ووثقه.

- نقل الشيخ جعفر السبحاني عن كتاب (وفاء الوفاء)، الحادثة التالية^(٢): إن المنصور العباسي سأل مالك بن أنس إمام المالكية عن كيفية زيارة رسول الله ﷺ والتوسّل به فقال لمالك: يا أبا عبد الله استقبل القبلة وأدعو، أم استقبل رسول الله؟ فقال مالك في جوابه: لِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتُك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة؟! بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَعْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا

(١) تقي الدين السبكي، شفاء السقام في زيارة خير الأنام، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٨.

(٢) جعفر السبحاني، الوهابية في الميزان، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٠.

رَحِيمًا^(١) . . . وهذه الرواية غنية عن التعليق لوضوحها، فالمنصور العباسي هو الخليفة، ومالك هو من العلماء والفقهاء الكبار آنذاك.

- نقل السيد محسن الأمين عن العلامة ابن حجر في كتابه (الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان): أن الإمام الشافعي أيام هو ببغداد كان يتوسّل بالإمام أبي حنيفة، يجيء إلى ضريحه يزور فيسلم عليه ثم يتوسّل إلى الله تعالى به في قضاء حاجته، قال: وقد ثبت أن الإمام أحمد توسّل بالإمام الشافعي، حتى تعجب ابنه عبد الله ابن الإمام أحمد، فقال له أبوه: إن الشافعي كالشمس للناس وكالعافية للبدن، ولما بلغ الإمام الشافعي أن أهل المغرب يتوسّلون إلى الله بالإمام مالك لم ينكر عليهم^(٢)، والواضح في هذه الرواية بقوة، هو جواز التوسّل وخاصة أن كل هؤلاء من أئمة المذاهب وعلمائها.

- قال الشيخ الهرري في (المقالات): وقد نص الحنابلة في كتبهم على جواز التوسّل بالصالحين، قال ابن مفلح الحنبلي في كتاب كشف القناع ما نصه: وقال السامري

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٢) محسن الأمين، كشف الارتباب، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

وصاحب التلخيص: لا بأس للاستسقاء بالشيوخ والعلماء المتقين، وقال في المذهب: يجوز أن يستشفع إلى الله برجل صالح، وقيل يستحب^(١).

- قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في (تهذيب التهذيب) قال ما نصه: (يقصد الحاكم في تاريخ نيسابور): «وسمعت أبا بكر محمد بن المؤمل بن الحسن بن عيسى يقول: خرجنا مع إمام أهل الحديث أبي بكر بن خزيمة وعديل أبي علي الثقفي مع جماعة من مشايخنا وهم إذ ذاك متوافدون إلى زيارة قبر علي بن موسى الرضا عليه السلام بطوس، قال: فرأيت من تعظيمهم يعني ابن خزيمة لتلك البقعة وتواضعه لها وتضرعه عندها ما تحيرنا...»^(٢)، فهذه الرواية تصرح بأن إمام أهل الحديث ابن خزيمة آنذاك قد عرف فضل أهل البيت وفضل التوسّل بهم.

- نقل صائب عبد الحميد قول أبي علي الخلال شيخ الحنابلة في كتاب (تاريخ بغداد) هذا النص: «ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسّلت به إلا سهّل الله تعالى لي ما أحب»^(٣).

(١) عبد الله الهرري، المقالات السننية، دار المشاريع، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢٣٣.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٣٦.

(٣) صائب عبد الحميد، الوهاية في صورتها الحقيقية، دار الغدير للدراسات، ١٩٩٥، ص ٧٦.

- ورد هذا الدعاء عن الإمام زين العابدين في ذكر محمد ﷺ وآله (رضوان الله عليهم أجمعين): اللهم يا من خص محمداً وآله بالكرامة وحباهم بالرسالة وخصصهم بالوسيلة وجعلهم ورثة الأنبياء، وعلمهم ما كان وما بقي وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم فصل على محمد وآله الطاهرين^(١).

- قال العلامة المظاهري: ويقول المرحوم الملا صدرا الذي كان يسكن مدينة شيراز، كنت أذهب لأنتهل واستمد العون من روح السيدة بنت الإمام موسى بن جعفر الكاظم (رضي الله عنه) كي ما أتمكن من حل بعض الشبهات الفلسفية التي كانت تعرض لي في أثناء عملي، ولا يخفى على أحد سيرة الملا صدرا الذي كان مختصاً بالفلسفة الإسلامية وفي تفسير روايات أهل بيت الرسول ﷺ ناهيك عن طرحه للحكمة المتعالية بدلاً من فلسفة المشائين وفلسفة الإشراق^(٢).

- نقل العلامة المجلسي عن بعض الكتب المعتمدة، إنه روى محمد بن بابويه هذا التوسّل عن الأئمة (رضي الله عنهم)

(١) الإمام السجاد ﷺ، الصحيفة السجادية الكاملة، ص ٤٦.

(٢) الأستاذ مظاهري، جهاد النفس، دار المحجة البيضاء، بيروت، ١٩٩٣،

وقال: ما توسلت لأمر من الأمور إلا وجدت أثر الإجابة سريعاً، وهو: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة محمد ﷺ، يا أبا القاسم، يا رسول الله، يا إمام الرحمة، يا سيدنا ومولانا إنا توجهنا واستشفعنا وتوسلنا بك إلى الله وقدمناك بين يدي حاجتنا، يا وحيهاً عند الله اشفع لنا عند الله^(١).

- قال السيد ابن طاووس في (مهج الدعوات): وروي أن رجلاً اعتقل في الشام مدة طويلة فرأى الزهراء (رضي الله عنها) في المنام تقول: ادع بهذا الدعاء وعلمته إياه، فلما دعا به أطلق سراحه وعاد إلى بيته، وهو هذا الدعاء: اللهم بحق العرش ومن علاه، وبحق الوحي ومن أوحاه، وبحق النبي ومن نبأه، وبحق البيت ومن بناه، يا سامع كل صوت، يا جامع كل فوت، يا باريء النفوس بعد الموت، صل على محمد وأهل بيته، وآتنا وجميع المؤمنين والمؤمنات في مشارق الأرض ومغاربها مخرجاً من عندك عاجلاً، بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدك ورسولك، صلى الله عليه وآله وعلى ذريته الطيبين الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً^(٢).

(١) عباس القمي، مفاتيح الجنان، مرجع سابق، ص ١٦٣، دعاء التوسّل.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٦٧.

- روى الكفعمي في (البلد الأمين): دعاء عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام وقال: إنه دعاء عظيم الشأن سريع الإجابة، جاء فيه: اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك وهو الكفر، فاغفر لي ما بينهما، أسألك بحق من اصطفتهم من خلقك ولم تجعل في خلقك مثلهم أحداً أن تصلي علي محمد وآله وتفعل بي ما أنت أهله... (١).

- وقال الكفعمي في (البلد الأمين) أيضاً: هذا دعاء الإمام المهدي عليه السلام، وقد علمه سجيناً فأطلق سراحه، وهو: ... اللهم صل على محمد وآل محمد أولي الأمر الذين فرضت علينا طاعتهم، وعرفتنا بذلك منزلتهم، وفرّج عنا بحقهم فرجاً عاجلاً قريباً كلمح البصر أو هو أقرب (٢).

(١) المرجع السابق ذكره، ص ١٧٠.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ١٧١.

٣ - أهم القائلين بجواز التوسّل

واتماماً للفائدة، من المناسب أن نشير إلى بعض أهم القائلين بجواز التوسّل، من خلال ذكر بعض المصادر والكتب القائلة بذلك، والتي تناول فيها كاتبوها هذه المسألة بعناية زائدة، إمّا لجهة الاستدلال للجواز من خلال القرآن الكريم والحديث المطهر، وإمّا لجهة تنفيذ آراء المعترضين والرد عليها، وخاصة أن هؤلاء الكتاب ينتمون إلى معظم المشارب والمذاهب الفقهية الإسلامية، كالأحناف، والشافعية، والمالكية، والشيعة، مع بعض الالتباس لدى الحنابلة، الذي انبثق منهم ذلك التيار القائل بعدم جواز التوسّل، الذي سنتعرض له في الفصل القادم بإذن الله^(١).

(١) وعلى هذا فإن أسماء بعض هذه المصادر والكتب نقلناها عن الأميني في الغدير ١٨٦/٥، وعن السبحاني في الوهابية في الميزان ص ١٨٦، وعن المهداوي في زيارة قبر النبي ﷺ ص ١٩، وهذه كلها مصادر معتمدة ومذكورة.

وأما أسماء المؤلفات والكتب التي ذكرها الأميني كذلك السبحاني، فهي:

- ١ - الحافظ بن الجوزي، ت ٥٩٧هـ، في كتاب (الوفاء في فضائل المصطفى)، جعل فيه بابين في المقام: باب التوسّل بالنبي، وباب الاستشفاء بقبره الشريف.
- ٢ - شمس الدين أبو عبد الله عمر بن النعمان المالكي، ت ٦٧٣هـ، في كتابه (مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام)، ويقع في نحو عشرين كراساً.
- ٣ - ابن داوود المالكي الشاذلي، ذكر في كتابه (البيان والاختصار) شيئاً كثيراً مما وقع للعلماء والصلحاء من الشدائد فالتجأوا إلى النبي ﷺ، فحصل لهم الفرج.
- ٤ - الإمام تقي الدين السبكي، ت ٧٥٦هـ، في (شفاء السقام)، وهو من مصادر هذا الكتاب.
- ٥ - السيد نور الدين السمهوري، ت ٩١١هـ، في (وفاء الوفاء)، الجزء الثاني.
- ٦ - الحافظ أبو العباس القسطلاني، ت ٩٢٣هـ، في (المواهب اللدنية).
- ٦ - أبو عبد الله الزرقاني المصري المالكي، ت ١١٢٢هـ، في (شرح المواهب)، الجزء الثامن.

- ٨ - الخالدي البغدادي، ت ١٢٩٩هـ، في (صلح الإخوان)، وأفرد فيه رسالة رداً على كلمة السيد محمود الألويسي في التوسّل بالنبي ﷺ .
- ٩ - العدوي الحمزاوي، ت ١٣٠٣هـ في (كنز المطالب).
- ١٠ - العزامي الشافعي القضائي، في (فرقان القرآن).
- أما تلك التي ذكرها المهداوي، فهي:
- ١ - (الأربعون المختارة في فضل الحج والزيارة)، للحافظ أبو المكارم أبو بكر جمال الدين محمد بن يوسف المعروف بإبن مسدي الأندلسي الغرناطي، ت ٦٦٢هـ.
- ٢ - (تحفة الزوار إلى قبر النبي المختار) و (الجوهر المنظم في زيارة القبر المعظم)، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر المكي الهيثمي الأنصاري، ت ٩٧٣هـ.
- ٣ - (حسن التوسّل في أدب زيارة أفضل الرسل)، لجمال الدين عبد الله بن أحمد بن علي الفاكهاني الملكي الشافعي، ت ٨٩٩هـ.
- ٤ - (تحفة المحبين لزيارة مسجد سيد المرسلين)، للشيخ جعفر بن حسين هاشم الحسيني المدني.
- ٥ - (الدر الثمينة فيما لزائر النبي إلى المدينة)، للشيخ عبد الغني المدني.

- ٦ - (الذخائر القدسية في زيارة خير البرية)، للشيخ عبد الحميد بن محمد علي بن عبد القادر قدس المكي الشافعي، ت ١٣٣٥هـ.
- ٧ - رسالة (من حج ولم يزر قبر النبي ﷺ)، للملا صديق حسن خان القانوحى.
- ٨ - (زبدة الفكر في زيارة سيد البشر)، لعلي بن مصطفى بن بشير محمد الكوتاهية الرومى الحنفى، ت ١٠٧٢هـ.
- ٩ - (العمل المقبول في زيارة الرسول)، لقاضي القضاة كمال الدين بن الزملكاني الأنصارى السماكى الدمشقى.
- ١٠ - (القول المنصور في زيارة سيد القبول)، لأبى عبد الله محمد بن يحيى بن مهدي الجرجاني الحنفى.
- ١١ - (اللؤلؤ المطهر من الجوهر المنظم في زيارة القبر المكرم)، لعبد الله بن أحمد القطان، ت ١٠٠٠هـ.
- ١٢ - (الدور المنيف في زيارة أهل البيت الشريف)، لأحمد بن أحمد مقيبيل المصرى الصافى الشاذلى مالكى، ت ١٢٥٤هـ.

^^

الفصل الثالث

عدم جواز التوسل ، أدلته ، والقائلون به

- ابن تيمية الحراني؛ العقائد والأفكار (إطالة تمهيدية)

١ - الأدلة العقلية

أ - الموقف من هذه الأدلة

ب - نتيجة التنكر للعقل

٢ - الأدلة الشرعية

أ - الجمود على ظاهر النص ومشكلة التأويل

ب - حجية عمل السلف

٣ - أهم القائلين بعدم جواز التوسل

9.

- ابن تيمية: العقائد والأفكار (إطالة تمهيدية)

في يوم الاثنين، العاشر من ربيع الأول سنة ٦٦١هـ، ولد أحمد بن عبد الحلیم الحراني، المعروف بابن تيمية، في بيت المشيخة الحنبلية، وفي واحد من أهم معاقل الحنبلية، مدينة حران، في ذلك البيت ترعرع الوليد، وفي ذلك المحيط أمضى سنينه الست الأولى، تلك السنين التي تغذى الطفل بزادها، وزرعت بصماتها في ذهنه، وفي وجدانه، لتترك آثارها فيه طفلاً، ثم يافعاً، ثم كهلاً، فشيخاً.

وبعد السادسة من عمره، حمله أبوه مع سائر أسرته سنة ٦٦٧هـ، مفارقاً مسقط رأسه ومهوى فؤاده، قاصداً دمشق، هرباً من الغزو التتري المتتابع على حران، واستقرت الأسرة في دمشق إلى حيث تشتهي من المنزل والمنزلة، فأفرد للشيخ عبد الحلیم - والده - كرسي بجامعة دمشق يدرّس فيه، وأسندت إليه مشيخة دار الحديث السكرية في القضاة محل سكناه.

وأما الناشء أحمد فلم يُذكر شيء عن طفولته، حتى ابتداء

درسه على أبيه في دمشق، ثم تنقل بين عدد من مشايخها آخذاً عنهم علوم الحديث، والرجال، واللغة، والتفسير، والفقه والأصول، وقرأ بنفسه، ونسخ كتباً بيده منها سنن أبي داود، وكان حاد الطبع، حديد الذهن، قوي الحافظة، برز على أقرانه، ولمّا يجاوز العشرين من عمره، وكان أبوه يعلمه الإفتاء ويدربه عليه ليعده لخلافته بعد موته، قصد مكة حاجاً في سنة ٦٩١هـ، ومضت أيامه هادئة، ممدوح السيرة، عالي الصيت، مدرساً، وخطيباً، ومصنفاً حتى سنة ٦٩٨هـ، فتفجرت عليه براكين الغضب في دمشق والشام، فتابعته القاهرة والإسكندرية، غضب قادة فقهاء المذاهب الثلاثة وشيوخ الصوفية الذين كانت لهم معه جولات من الصراع، ونزاعات لم تخمد، إلا أنها لم تبلغ ذروتها إلا في ما بعد.

كل ذلك كان إثر خطبة ألقاها على المنبر تكلم فيها في ذات الله تعالى وصفاته، فعمّق البحث، وتوسع وأطنب، ثم زاد على ذلك ما أدخله من براهين ناصر فيها عقيدة القائلين بالتجسيم، الذين نسبوا إلى الله تعالى صفات هي من صفات الأجسام، كالوجود في جهة واحدة، والاستواء على العرش حقيقة، والحركة والانتقال، وأن الوجه والأيدي والأعين والأرجل المذكورة في بعض الآيات والأحاديث إنما هي على الحقيقة دون المجاز.

تلك أول ثائرة كبيرة تشور عليه، استدعي على أثرها عام ٧٠٥هـ إلى مصر، حيث سجن هناك سنة ونصف، ثم أفرج عنه، وأمر بالإقامة في الإسكندرية، فأمضى فيها ثمانية أشهر في برج على البحر، وفي الإسكندرية ركز حملاته على الصوفية، ووقعت هناك فتن كثيرة مدة إقامته، وفي سنة ٧٠٨هـ استدعاه السلطان الناصر إلى القاهرة، فأكرمه وقدمه وأسند إليه التدريس في المدرسة التي كان السلطان قد أنشأها هناك، وكان طول الوقت على اتصال بأصحابه في دمشق يكاتبهم ويكاتبونه، ويبعثون إليه ما يطلبه من الكتب.

في سنة ٧١٢هـ، عاد ابن تيمية إلى دمشق، حيث عمل على نشر أفكاره وتعاليمه بين مريديه وصولاً إلى حصوله على احترام السلطان له إثر دور لعبه في غزوة ضد التتار، وفي عام ٧٢٠هـ ثارت عليه ثائرة دمشق إثر مسائل في الطلاق أفتى فيها بخلاف المذاهب الأربعة، واستدعي للقضاء ومنع من الإفتاء، وسجن خمسة أشهر ثم أفرج عنه بأمر من السلطان، وتجددت الفتنة على أشدها في سنة ٧٢٦هـ على أثر تجديده الكلام في فتواه بتحريم شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين.

وكثر الكلام والتشنيع على ابن تيمية، وحصلت فتنة طار شرارها في الآفاق، ورفعوا ذلك إلى السلطان فتردد في أمره، وبين هذا وذاك رأى السلطان أن ينقله إلى قلعة دمشق إخماداً

للفتنة، وهناك تفرغ للكتابة، فكتب في الرد على خصومه من القضاء المالكية والشافعية، وكتب في التفسير أيضاً، بقي بعد ذلك أياماً، مرض بعدها مرضاً شديداً، امتد معه عشرين يوماً، فتوفّي على إثره ليلة الإثنين، عشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ، وشهد جنازته خلق كثير، وازدحم مُحبوه على النعش يلقون عليه مناديلهم وعمائمهم للتبرك به، وقيل: إن منهم من مزق شيئاً من كفنه، وأخذوا ماء غسله، كل ذلك للتبرك به...!!

دفن الرجل في مقابر الصوفية، خصومه مدى حياته، وخصومه بعد موته أيضاً!، إذن عاش الشيخ ابن تيمية نحو ٦٨ سنة، ثم مات فرداً، لم يتزوج مدة حياته^(١)، طوال مدة حياته القلقة والمتردة بين السجن والمنع من الإفتاء، لم يستطع الشيخ أن يركز دعائم أفكاره في جمهور العلماء المسلمين آنذاك، لكنه نجح في رسم معالم فكرية - اعتبرت شاذة في حينه - شكلت اللبنة الأولى والقاعدة الأساسية في بلورة مجموعة العقائد التي قامت على التيارات السلفية والوهابية لاحقاً.

(١) صائب عبد الحميد، ابن تيمية، حياته وعقائده، مرجع سبق ذكره، ص ٥٤ - ٦٤، بتصرف.

وما فشل في تحقيقه ابن تيمية، نجح فيه محمد بن عبد الوهاب، مؤسس المذهب الوهابي، وذلك في سنة ١١٤٣هـ، حيث أصبح هذا المذهب الجديد القائم على أفكار ومعتقدات ابن تيمية، هو المعتمد لدى بعض الأنظمة العربية في شبه الجزيرة العربية، وذلك بعد ما كان ينادى في دمشق حول هذه العقائد بالقول: من اعتقد عقيدة ابن تيمية حلّ دمه وماله!!^(١).

وسبب نجاح محمد ابن عبد الوهاب، كما يظهر من خلال مراجعة تاريخ تلك الحقبة، يعود لأمرين:

الأول: اعتناق محمد بن سعود الشخصية الأولى في منطقة الدرعية لمذهب محمد بن عبد الوهاب، ومن ثم قيامه بتزويج ابنته لابن عبد الوهاب.

الثاني: إنّ عائلة سعود المؤسس السياسي للحكم الوهابي، بعد ما حاز محمد بن سعود على لقب أمير، وهو أول من فاز بهذا اللقب في تلك الفترة من الزمن.

وملخص هذا الأمر نقتطفه من يوركهاردت الذي قام بدراسة أحوال البدو في شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة مع ما رافقها من نشوء المذهب الوهابي حيث قال: «...».

(١) عبد الحسين أحمد الأميني، الغدير، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٤، ص ١٢١.

ومؤسس الوهابية هو (عبد الوهاب) عالم عربي قد زار المدارس في الشرق، واقتنع بأن ما شاهده ولاحظه أثناء رحلاته لا يمثل العقيدة الإسلامية الأولى، بل أنها قد فسدت تماماً بعد أن غمرتها المفاسد، ورأى وجوب اعتبار القسم الأكبر من أبناء الشرق، وبخاصة الأتراك مشركين، ولم تحظ هذه الأفكار إلا بقليل من القبول في المشرق والمغرب، ولم ينل عبد الوهاب أي نصيب من الاهتمام، ثم عاد واستقر عبد الوهاب مع أسرته في الدرعية، بعد تجوال طويل، في ذات الفترة التي كان فيها محمد بن سعود الشخصية الأولى في الدرعية، وأصبح محمد من أتباع عبد الوهاب، وتزوج ابنته .

ولما اختص عبد الوهاب الدرعية بدعوته في بداية الأمر، وباعتناق أهلها لمذهب عبد الوهاب، وعلى رأسهم الأمير محمد بن سعود وعبد العزيز اللذان واصلا جهودهما التي لم تكل، وحملا السلاح إلى أقصى أركان الجزيرة العربية، ودعوا إلى المبادئ الوهابية ثم توطيد السيادة عبر تلك المبادئ بيسر، هذه المبادئ التي عملت العرب على الإقرار بالسلطة الروحية والزمنية في شخص واحد كما كان في الصدر الأول للإسلام^(١).

(١) جون لويس يوركهاردت، البدو والوهابيين، ترجمة محمد الأسيوطي، بدون دار نشر، ١٩٨٨، ٢/٢٠٢.

إذن توطلدت دعائم الفكر والعقائد الوهابية في أركان الجزيرة العربية بعدما أصبح لها شبه إمارة تدافع عن هذه العقائد بقوة السلاح، الأمر الذي أدى إلى مواجهات دموية كثيرة هنا وهناك، وخاصة مع الأتراك، خصوصاً «أن الوهابيين يتهمون الأتراك بتقديس الرسول ﷺ بطريقة ترقى إلى مستوى العبادة، ويفعلون نفس الشيء مع الأولياء في حين لا يعتبر الأتراك ذلك خطأ لأنه يقوم على أساس من القرآن والسنة»^(١).

وكان من نتائج هذا الأمر، وأينما حمل الوهابيون السلاح، أنهم حطموا كل القباب والقبور والأضرحة، ذلك الأمر الذي أشعل روح التعصب لدى أتباع الوهابية، وشكل ملمحاً متميزاً بينهم وبين منافسيهم، وكانت تلك سياسة كل مؤسسي المذهب الجديد، «لذا أصبح تدمير القباب والأضرحة والقبور العمل المفضل للوهابيين... واضطلع الوهابيون بمهمة تدمير القباب التي تزين أسقف المساجد أيضاً، وفي مكة، لم تترك قبة فوق أي قبر لأي عربي مشهور حتى القباب التي تغطي محل ميلاد النبي ﷺ وأحفاده وعمه أبي طالب وزوجته خديجة حيث دمرت كلها تماماً، وقد سمع الناس هتافات الوهابيين أثناء القيام بعمليات التدمير وأنهم لن يغفروا

(١) نفس المرجع السابق، ٢/٢٠٥.

لمن يعيد بنائها . . . وحتى القبة الموجودة فوق قبر النبي ﷺ لاقت نفس المصير، حيث أصدر سعود الأمر بإزالتها، وبعدما قتل العديد من رجاله بسقوطهم من فوق القبة تم الإقلاع عن محاولة الهدم»^(١).

كانت هذه لمحة تاريخية عامة ومختصرة عن حركة نشوء وتطور أفكار المعترضين على التوسّل، والتي استقت أصول عقائدها من ابن تيمية، وللتعرف إلى هذه العقائد والأفكار، لا بد من الرجوع إلى ما ورد عن ابن تيمية بهذا الخصوص وفق تسلسل التقسيمات وجزئيات هذا الفصل، بداية من موقف ابن تيمية حول العقل والأدلة العقلية عموماً، وصولاً إلى قوله بعدم جواز التوسّل.

(١) جون لويس يوركهاردت، البدو والوهابيين، المرجع السابق، ٢٠٧/٢.

١ - الأدلة العقلية

العقل هو المشكلة التي شغلت الفلاسفة والمفكرين في كل عصر، وخاصة مفكري الإسلام، وكان ذلك نتيجة حث القرآن على التفكير للوصول إلى الإيمان بالله، إلى أن ظهرت في الإسلام فرق تشيد بالعقل إلى أكبر الحدود، وتجعله حكماً بين الحق والباطل وبين الخير والشر، أما ابن تيمية فلا يُهمل العقل ولا التفكير، عندما يجعل الكتاب والسنة، وآثار الصحابة ومن إليهم سنده الأول في بحوثه وآرائه، ولكنه كان يجعل للعقل قيمته ومجاله الذي يجول فيه، ويدعي أنه لا يرتفع به عن قدره ولا يتجاوز به حدوده، كما أن ابن تيمية لا يصدق الأحاديث النبوية التي ترد فيها كلمة العقل، وخصوصاً المراد فيها بالعقل، العقل الإنساني كجوهر مستقل قائم بنفسه^(١).

ولفهم موقف ابن تيمية من العقل كجوهر قائم بنفسه، أو

(١) محمد حسني الزين، منطق ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٨١، بتصرف.

كعنصر من عناصر الاستدلال نبدأ أولاً من تعريفه للعقل كما نقله الدكتور محمد الزين في كتابه (منطق ابن تيمية): يعرف ابن تيمية العقل في كتابه (الرد على المنطقيين) فيقول: العقل في لغة المسلمين، مصدر عقل يعقل عقلاً، وهو أيضاً غريزة في الإنسان، فسماه من باب الأعراض لا من باب الجواهر القائمة بأنفسها، أما عند الفلاسفة فسماه من النوع الثاني أي القائم بنفسه^(١).

بهذا التعريف يناقض الفلاسفة الذين يقولون بالعقل كجوهر قائم بنفسه، كما أن العقل في نظر ابن تيمية هو غريزة في الإنسان، وهو كذلك في نظر أحمد بن حنبل والحاثر المحاسبي وغيرهما من الذين يقولون: إن العقل غريزة، وإذا كان ابن تيمية يسمي العقل من باب الأعراض لا من باب الجواهر، فلأن الجواهر القائمة بنفسها تفعل ولا تنفعل، تحكم ولا يحكم عليها، والغرائز الإنسانية لا تخرج عن أنها أدوات محرّكة للنشاط البشري، وفاعلية في كثير من الميادين الإنسانية، بحيث أنها تدفع الكائن نحو إشباعها لتهدأ وتستقر.

رفض ابن تيمية إذن العقل كجوهر، ورفض كل ما يقوله

(١) محمد حسني الزين، منطق ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٨١، بتصرف.

الفلاسفة عن العقل ، وعده كفراً وضلالاً وباطلاً^(١) ، وكذلك لم يعترف ابن تيمية بالأحاديث النبوية التي تأتي على ذكر العقل بمعناه الفلسفي ، وترفعه إلى أعلى مراتب القداسة ، وتجعله مسلطاً بأمر الله على شؤون الناس وأمورهم ، واعتبر أن هذه الأحاديث موضوعة ، كما حاول إظهار ضعفها وسقمها^(٢) ، ومن تلك الأحاديث ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال : «أول ما خلق الله العقل ، قال له : أقبل فأقبل ، ثم قال : أدبر فأدبر ، فقال : وعزتي ما خلقتُ خلقاً أكرم علي منك ، فبك أخذ وبك أعطي ، وبك الثواب ، وبك العقاب» .

وعلق الدكتور الزين على هذا بالقول : ولا يعني هذا أن ابن تيمية عندما أنكر عقل الفلاسفة ، قال بمبدأ العقل الديني الذي يرفض كل ما سوى الدين ، وإنما ثقة ابن تيمية المطلقة بمعتقده ، ووضوح الأدلة والبراهين في القرآن والسنة عنده ، جعله يلتزم بأدلة الدين العقلية والنقلية ، طالما أنه لا يثق بالعقل مجرداً عن قيام التجربة الصادرة عن الممارسة بالحواس والعقل مشتركين^(٣) .

(١) نفس المرجع السابق ، ص ١٨٤ ، بتصرف .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٨٥ ، بتصرف .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٩٩ ، بتصرف .

ويتضح لنا هنا أن منهج ابن تيمية يدور ضمن محاور ثلاثة رئيسة، فالمحور الأول هو النقل، والمحور الثاني هو العقل، والمحور الثالث هو الحواس والتجربة الحسية مع العقل، ونلاحظ أن العقل هو القاسم المشترك بين المحورين الآخرين في مجالهما المخصص للمعرفة، فبالنسبة للعلوم النظرية غير الدينية: يشترك العقل والحواس في ميدان التجربة والممارسة والتكرار لتمحيص الظواهر الطبيعية والقوانين العلمية، وبالنسبة للمعرفة الشرعية: يجعل النصوص الدينية، بما تحتوي عليه من أدلة وبراهين، مشاركة للعقل في تحقيق العلوم الشرعية^(١)، وعليه: فكيف تعامل ابن تيمية مع مسألة التوسّل، وخاصة أن أدلة القائلين بالجواز تستند إلى نصوص دينية كما تستند إلى أدلة عقلية مؤيدة بدورها من نصوص دينية أخرى؟

◀ أ - الموقف من هذه الأدلة:

تميز ابن تيمية بموقفه من العقل وأدلته عن معظم فقهاء المسلمين، حيث عرّف العقل بأنه غريزة من باب الأعراض وليس جوهر قائم بذاته، وانسجاماً مع القول حاول ابن تيمية أن يوفق بين العقل والنقل، وأن يزيل ما بينهما من تعارض في

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٠٠، بتصرف.

الظاهر، لأن المنقول الصحيح عن الرسول، والمعقول الصريح لا يتعارضان برأي ابن تيمية، ولا خلاف بين ما وصل إليه العقل السليم وبين ما ثبت نقله عن الرسول ﷺ، وفي هذا يقول: «المنقول الصحيح لا يعارضه منقول صريح قط»، . . . ويقول: «ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال أنه يخالف، إما حديث موضوع، أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح فكيف إذا خالفه صريح المعقول»^(١).

ومن هذا المعتقد كان ابن تيمية يتخذ من الكتاب والسنة حكماً على جميع الأحكام الدينية الاعتقادية والعملية، ويعتد بها كمرجع يجب أن تلجأ إليه سائر الفرق التي تتنازع في شأن العقائد، ففي الكتاب من فنون الأدلة ومتنوع البراهين المجال الواسع للعقل يستطيع أن ينهل منها دون تعثر أو ريب، ويكفي أن يكون النص صحيحاً عنده كي لا يعدل به شيئاً آخر، ولا يلتفت إلى ما يعارضه من أقيسة نظرية أو مكاشفات صوفية، أو غير ذلك من طرق المعرفة، والطريق الوحيد للوصول إلى العلم اليقيني عند ابن تيمية، هو ما جاء به الرسول ﷺ، لأن

(١) محمد حسني الزين، منطق ابن تيمية، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠١، بتصرف.

الرسول بيّن الدين: أصوله وفروعه جميعاً، ومقياس صحة العقل وفساده في نظر ابن تيمية، هو موافقته للنقل، وكذلك صحة النقل وفساده يرتبط بصحة العقل وفساده.

وخلاصة القول: أن ابن تيمية يرى أن القرآن الكريم، هو الإمام الذي يقتدي به، وأن الرجل لا يكون مؤمناً حتى يؤمن بجميع ما أخبر به الرسول إيماناً جازماً ليس مشروطاً، وأن لا يتكلم في الشيء من الدين إلا تبعاً لما جاء به الرسول، وليس معنى هذا أن ابن تيمية يقدم الأدلة السمعية على الأدلة العقلية للوصول إلى معرفة الخالق وثبات اليقين في العقل، بل يعتقد أن للعقل قدرته على الإدراك والتمييز، وهو المرجع الأخير الذي يدرك الحقائق الثابتة وهو كذلك أصل النقل، ونرى من هذا أنه يقدم الدليل العقلي تارة والسمعي أو النقلية تارة أخرى، فأيهما كان قطعياً قُدم.

وإذا كان العقل أصلاً للنقل، فإنه ليس أصلاً في ثبوته في نفس الأمر، وليس أصلاً في العلم بصحة هذا النقل، فكم من الأشياء الثابتة في النفس، تكون معلومة بدون الحاجة إلى العقل، وليس كل ما لا يعلم يكون منفيّاً لا وجود له، ومن هذه النقطة، نقطة ثبوت النقل في نفسه، وغناه عن معرفتنا به لثبوته وعدم حاجته لإقرارنا به ليصير موجوداً، ينطلق ابن تيمية إلى القول: «أن العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه ولا

معطياً له صفة لم تكن له ، ولا مقيداً له صفة الكمال ، لأن العلم في الشرع مطابق للمعلوم المستغني عن العلم^(١) ، وأخيراً: يجزم ابن تيمية بأن تقديم العقل مطلقاً هو خطأ وضلال ، كما يوجب تقديم الشرع على العقل إذا تعارضاً ، فإن العقل مصدق للشرع بكل ما أتى به الشرع ، والشرع غير مصدق للعقل في كل ما أخبر به^(٢) .

◀ ب - نتيجة التنكر للعقل:

كان من نتيجة هذا الأمر ، أي تقديم الشرع على العقل ، قيام ابن تيمية برفض كل الأدلة العقلية القائلة بجواز التوسّل وإمكانيته ، واكتفائه بالأحاديث والنصوص التي وردت عن النبي ﷺ وفق منهج خاص يبرز جلياً في كتابه (التوسّل والوسيلة) الذي اعتمد فيه على الأحاديث الواردة بهذا الخصوص ، وقيامه بمعالجتها معالجة فنية حديثة تركزت على المتون والأحاديث ، ولم يلتفت أثناء هذه المعالجة إلى العقل واستدلالاته ، وإنما جاء تعرضه للعقل والأدلة العقلية في سياق رده على الفلاسفة والمتكلمين الذين اعتبرهم مرضى حادوا عن طريق الحق إلى الضلال ، في الوقت الذي جعل من نفسه

(١) نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ، بتصرف .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٢٠٢ - ٢٠٥ ، بتصرف .

حامياً للعقل من زيف الفلسفة وبدعها، وهذا ما عبّر عنه بالقول: «... وقد أثبت فساد قانون الفلاسفة والمتكلمين، وقال أنهم صدوا عن فهم مراد الرسول وتصديقه في ما أخبر به، من جراء ما ابتكروا من قوانين فكرية فاسدة، وجعلوها قضايا مسلمة، وحاولوا إلزام العقول بما يترتب على هذه القوانين والأوضاع الفكرية من نتائج عوجاء تتوافق مع أهوائهم الفلسفية»^(١).

وخلاصة ما تقدم: فإن ابن تيمية يعتبر أن العقل يقتصر دوره على التصديق البدوي في الشرع بشكل كلي، ومن ثم يتراجع دوره هذا أمام النقل، عقله أم لم يعقله، فالأمر سيان، وخاصة عندما يعبّر بالقول: «إن تقديم الشرع على العقل أمر ممكن وواجب، وكون الأشياء معلومة في العقل أو غير معلومة، وهي من الأمور النسبية الإضافية»^(٢)، لذا جاءت معظم آرائه العقائدية والفقهية مبتنية على النصوص الشرعية الواردة عن النبي دون سواه، وعليه سوف نستعرض هذه الأدلة والنصوص الشرعية التي أفضت به للقول بعدم جواز التوسّل.

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٠٠، بتصرف.

(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢٠٩، بتصرف.

٢ - الأدلة الشرعية

تبين لنا أن ابن تيمية في منهجه العام لا يثق بالعقل ثقة مطلقة، وخصوصاً في مقدمات الحكم على العقائد والأحكام، من حيث صحتها وعدم صحتها، وبالتالي فإن العقل لا يستقيم إدراكه في الوصول منفرداً إلى حقائق الدين، بل لا بد من النقل، الذي عبر عنه بالدليل الشرعي، وقسم ابن تيمية الدليل الشرعي إلى قسمين: سمعي وعقلي، أما السمعي: فهو الدليل الشرعي الذي لا يعلم إلا بمجرد إخبار الرسول، فإنه إذا أخبر به، وكان لا يعلم إلا بخبره كان ذلك شرعياً سمعياً، أما العقلي: فيقول، يكون معلوماً بالعقل، ولكن الشرع نبه ودل عليه، فيكون شرعياً عقلياً، كالأمثال المضروبة في الكتاب العزيز الدالة على توحيد الله، وصدق رسوله، فتلك أدلة عقلية تعلم صحتها بالعقل، وهي براهين ومقاييس عقلية، ومع ذلك فهي شرعية^(١).

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢١٨، بتصرف.

وقبل الشروع في استعراض الأدلة التي أثبتتها للوصول إلى القول بعدم جواز التوسّل، لا بد من الإشارة إلى أنه لم يرفض فكرة التوسّل على اعتبار أنها واسطة بين العبد والخالق بشكل مطلق، بل قال بضرورة التمييز بين المعاني المستفادة من لفظة التوسّل، فلفظ التوسّل عند ابن تيمية يراد به معان ثلاثة: أحدها: التوسّل بطاعته، أي بطاعة الرسول، فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به، والثاني: التوسّل بدعائه وشفاعته، وهذا كان في حياته ويكون يوم القيامة يتوسّلون بشفاعته، والثالث: التوسّل به بمعنى الإقسام على الله بذاته، والسؤال بذاته، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره^(١)، وهذا المعنى الأخير هو الذي رفضه ابن تيمية رفضاً قاطعاً، وقام بسوق الأدلة التي تدعم قوله هذا.

ومن جملة هذه الأدلة التي ساقها، والتي تظهر الاختلاف العملي بمعنى لفظة التوسّل، قوله: فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغي إليه وأخبر عنها ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغون إليها هي ما يتقرب به إليه من الواجبات والمستحبات، فهذه الوسيلة التي أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب، وما

(١) ابن تيمية الحراني، التوسّل والوسيلة، المكتب الإسلامي، ١٩٩٠، ص ٤٤، بتصرف.

ليس واجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرماً أو مكروهاً أو مباحاً، فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب واستحباب، وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول، فجماع الوسيلة التي أمر الله الخلق بابتغائها هو التوسّل إليه بإتباع ما جاء به الرسول، لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك.

والثاني: لفظة الوسيلة، في الأحاديث الصحيحة
 كقوله ﷺ «سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة»، وقوله: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد، حلت له الشفاعة»، فهذه الوسيلة للنبي ﷺ خاصة، وقد أمرنا أن نسأل الله له هذه الوسيلة، وأخبر أنها لا تكون إلا لعبد من عباد الله، وهو يرجو أن يكون ذلك العبد، وهذه الوسيلة أمرنا أن نسألها للرسول، وأخبرنا أن من سأل له الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة، لأن الجزء من جنس العمل، فلما دعوا للنبي ﷺ استحقوا أن يدعوا هو له، فإن الشفاعة نوع من الدعاء، كما قال: «إنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشراً».

أما التوسّل بالنبي ﷺ والتوجه به في كلام الصحابة فيريدون به التوسّل بدعائه وشفاعته، والتوسّل في عرف كثير من المتأخرين يراد به الإقسام والسؤال، كما يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين، ومن يعتقد فيه الصلاح، وحينئذ فلفظ التوسّل به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين، ويراد به معنى ثالث لم ترد به السنة^(١). وإذا أصبح من الواضح أن ابن تيمية يعترض على هذا المعنى الثالث بلفظ التوسّل، ولا يوافق عليه، وذلك من خلال ما قام به من مراجعة وتحليل للأحاديث أو الروايات الواردة والتي اعتمد عليها الفريق الآخر القائل بجواز التوسّل.

ومن هذه الروايات الرواية الواردة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الاستسقاء بالعبّاس رضي الله عنه ومن هذا قول عمر بن الخطاب: اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسّل إليك بعم نبينا فاسقنا، أي بدعائه وشفاعته، . . . وأما التوسّل بدعائه وشفاعته، كما قال عمر، فإنه توسّل بدعائه لا بذاته، ولهذا عدلوا عن التوسّل به إلى التوسّل بعمه العباس، ولو كان التوسّل هو بذاته لكان هذا أولى من التوسّل بالعباس، فلما عدلوا عن التوسّل به إلى

(١) ابن تيمية الحراني، التوسّل والوسيلة، المرجع السابق، ص ٤٣ - ٤٤.

التوسّل بالعباس ، علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته ، بخلاف التوسّل الذي هو الإيمان والطاعة له فإنه مشروع دائماً^(١) .

وعلق على هذه الرواية أيضاً في موضع آخر بالقول: . . . فلو كان السؤال به معروفاً عند الصحابة لقالوا لعمر: إن السؤال و التوسّل به ، أي بالنبي ، أولى من السؤال و التوسّل بالعباس ، فلم تعدل عن الأمر المشروع الذي كنا نفعله في حياته ، وهو التوسّل بأفضل الخلق إلى أن نتوسّل ببعض أقاربه ، وفي ذلك ترك السنّة المشروعة وعدول عن الأفضل وسؤال الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على أعلاهما ، ونحن مضطرون غاية الاضطرار في عام الرمادة الذي يضرب به المثل في الجذب ، والذي فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة والتابعين ، فتوسلوا بيزيد بن الأسود الجرشي كما توسّل عمر بالعباس ، وكذلك ذكر الفقهاء من أصحاب الشافعي وأحمد وغيرهم أنه يتوسّل في الاستسقاء بدعاء أهل الخير والصلاح ، قالوا: وإن كان من أقارب رسول الله ﷺ فهو أفضل ، اقتداء بعمر ، ولم يقل أحد من أهل العلم أنه يسأل الله تعالى في ذلك لا بنبي ولا بغير نبي^(٢) .

(١) ابن تيمية الحراني ، التوسّل والوسيلة ، المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٢) ابن تيمية الحراني ، التوسّل والوسيلة ، المرجع السابق ، ص ٥٧ .

أما بخصوص الحادثة التي جرت مع الإمام مالك والخليفة المنصور العباسي فقد علق ابن تيمية عليها بعد أن قام بسردها بالقول: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله أدب قوماً فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ﴾^(١)، ومدح قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾^(٢)، وذم قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾^(٣)، وإن حرمة ميتاً كحرمة حياً، فاستكان لها أبو جعفر، فقال: يا أبا عبد الله، استقبل القبلة وأدعو؟ أم استقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولما تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به، فيشفعك الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَأَسْتَعْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٤).

ومما جاء في تعليق ابن تيمية على هذه الحادثة: وهذه الحكاية منقطعة، فإن محمد بن حميد الرازي لم يدرك مالكا لا

(١) سورة الحجرات، الآية: ٢.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٣.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ٦٤.

سيّما في زمن أبي جعفر المنصور . . . وهذه الحكاية لم يذكرها أحمد من أصحاب مالك المعروفين بالأخذ عنه ، ومحمد بن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند ، فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته! هذا إن ثبت عنه . . . (١)

وأضاف في موضع آخر: وأما دعاء الرسول وطلب الحوائج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته، فهذا لم يفعله أحد من السلف، ومعلوم أنه لو كان قصد الدعاء عند القبر مشروعاً لفعله الصحابة والتابعون، وكذلك السؤال به، فكيف بدعائه وسؤاله بعد موته؟، فدل ذلك على أن ما في الحكاية المنقطعة من قوله: استقبله واستشفع به، كذب على مالك، مخالف لأقواله وأقوال الصحابة والتابعين وأفعالهم التي يفعلها مالك وأصحابه، ونقلها سائر العلماء، إذا كان احد منهم لم يستقبل القبر للدعاء لنفسه فضلاً عن أن يستقبله ويستشفع به، يقول له يا رسول الله اشفع لي أو ادع لي، أو يشتكي إليه المصائب في الدين والدنيا، أو يطلب منه أو من غيره من الموتى من الأنبياء والصالحين أو من الملائكة الذين لا يراهم أن يشفعوا له، أو يشتكي إليهم المصائب، فإن هذا

(١) ابن تيمية الحراني، التوسّل والوسيلة، المرجع السابق، ص ٥٨ - ٥٩.

كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين ومن ضاهاهم من مبتدعة هذه الأمة، ليس هذا من فعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان، ولا مما أمر به أحد من أئمة المسلمين...!!!^(١)

وأخيراً علّق ابن تيمية على هذه الحادثة المذكورة بالقول: ولفظ التوسّل والاستشفاع ونحوهن دخل فيها من تغيير لغة الرسول وأصحابه ما أوجب غلط من غلط عليهم في دينهم ولغتهم، والعلم يحتاج إلى نقل مصدّق ونظر محقق والمنقول عن السلف والعلماء يحتاج إلى معرفة بثبوت لفظه ومعرفة دلالاته، كما يحتاج إلى ذلك المنقول عن الله ورسوله، أما الصحابة فلم يعرف من تعمد الكذب على النبي ﷺ، كما لم يعرف فيهم من كان من أهل البدع المعروفة كبدع الخوارج والقدرية والمرجئة، فلم يعرف فيهم أحد من هؤلاء الفرق،... وأما التابعون فلم يعرف تعمد الكذب في التابعين من أهل مكة والمدينة والشام والبصرة بخلاف الشيعة، وقد عرف الكذب بعد هؤلاء في طوائف...!!!^(٢).

أما بخصوص حادثة الأعمى الذي أتى النبي ﷺ فعلق

(١) ابن تيمية الحراني، التوسّل والوسيلة، المرجع السابق، ص ٦١.

(٢) ابن تيمية الحراني، التوسّل والوسيلة، المرجع السابق، ص ٧٠.

ابن تيمية عليه بالقول: وحديث الأعمى الذي رواه الترمذي والنسائي، هو من القسم الثاني من التوسّل بدعائه، فإن الأعمى قد طلب من النبي ﷺ أن يدعو له، بأن يرد الله عليه بصره، فقال له: إن شئت صبرت، وإن شئت دعوت لك، فقال: بل ادعه، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين، ويقول: اللهم إني أسألك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد يا رسول الله، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه ليقضيها، اللهم شفّعه في. فهذا توسّل بدعاء النبي وشفاعته، ودعا له النبي ﷺ، ولهذا قال: وشفّعه في، فسأل الله أن يقبل شفاعته رسولاً فيه وهو دعاؤه، وهذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ، ودعائه المستجاب، وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات، فإن ﷺ ببركة دعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره... (١).

وعلى هذا المنوال قام ابن تيمية بتفنيد ورد كل هذه الأحاديث والروايات التي يظهر منها جواز التوسّل بالأنبياء والصالحين عموماً، والنبي ﷺ خصوصاً، وخلص إلى القول: والمقصود أن هذه الأحاديث التي تروى في ذلك من

(١) ابن تيمية الحراني، التوسّل والوسيلة، المرجع السابق، ص ٧٩.

جنس أمثالها من الأحاديث المنكرة بل الموضوعة التي يرويها من يجمع في الفضائل والمناقب الغث والسمين، كما يوجد مثل ذلك في ما يصنف في فضائل الأوقات، وفضائل العبادات، وفضائل الأنبياء والصحابة، وفضائل البقاع ونحو ذلك، فإن الأبواب فيها: أحاديث صحيحة، وأحاديث حسنة، وأحاديث ضعيفة، وأحاديث كذب موضوعة، ولا يجوز أن يعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي ليست صحيحة ولا حسنة، لكن أحمد بن حنبل وغيره من العلماء جوزوا أن يروى في فضائل الأعمال ما لم يعلم أنه ثابت إذا لم يعلم أنه كذب، وذلك أن العمل إذا علم أنه مشروع بدليل شرعي، وروي في فضله حديث لا يعلم أنه كذب جاز أن يكون الثواب حقاً، ولم يقل أحد من الأئمة أنه يجوز أن يجعل الشيء واجباً أو مستحباً بحديث ضعيف، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع. (١).

وعليه وبناء على ما تقدم: فإن ابن تيمية وضع معظم هذه الأحاديث والروايات التي يستفاد منها القول بجواز التوسّل بالأنبياء والصالحين في قائمة الأحاديث الضعيفة أو المكذوبة، وأما القسم الآخر منها فجعله وفق تحليله الخاص في قائمة الدعاء والاستشفاع حال الحياة فقط.

(١) ابن تيمية الحراني، التوسّل والوسيلة، المرجع السابق، ص ٧٠ - ٧١.

لكن بقيت مسألة الآيات القرآنية التي تستدعي تأويلها حتى
 يمن فهمها بما ينسجم مع روح التشريع، وبما يبعد القول
 بالتعارض الظاهري في بعض النصوص القرآنية وخاصة أنه
 يوجد في الكتاب العزيز العديد من الآيات التي تحتمل
 التأويل، والتي يمكن من خلال ذلك القول بجواز التوسّل فما
 هو رأي ابن تيمية في التأويل والعمل به؟، هذا ما سنعرفه في
 الجزئية القادمة بإذن الله .

◀ أ - الجمود على ظاهر النص ومشكلة التأويل:

التأويل هو فن من فنون الموافقة بين العقل والنقل،
 والهدف من التأويل عند القائلين به هو إزالة التعارض الظاهر
 للنصوص مع النظر العقلي، والعمل على الموافقة بينهما، فإن
 ابن تيمية يختلف عنهم اختلافاً كبيراً في منهجه القائم على
 الموافقة بين العقل والنقل، وإن كان متفقاً معهم في الظاهر أو
 في التسمية .

وأوجه الخلاف تكمن في أن المؤولين يفترضون أولاً
 تعارض النقل والعقل، وبعد ذلك يؤولون الألفاظ، ويقبلون
 المعاني لتتفق مع نظرياتهم، بهذا يسلمون بنظريات العقل
 ويثقون بمبادئه، ثم يصيغون النصوص وفق هذه المبادئ، أما
 ابن تيمية فلا يسلم مطلقاً بتعارض قائم بين النقل والعقل، فلا

تعارض عنده بين ما وصل إليه العقل السليم، وبين ما ثبت نقله عن الرسول بطريق صحيح، والموافقة بين النقل والعقل قائمة على إبانة الأدلة العقلية في القرآن الكريم، وإظهار الآيات المدللة على الموافقة بين الإثنين.

ويرى أن الدليل القطعي في القرآن الكريم واضح لا يلزمه نظر عقلي للاقتناع بصحته، وبالتالي يكون العقل تابعاً لهذا الدليل مسترشداً به لا يضل ولا يتيه.

ويفرّق ابن تيمية بين التأويل عند السلف وبينه عند المتكلمين، فالتأويل عند رجال السلف هو التفسير، وبيان المراد من النص القرآني أو النصوص والأحاديث، وهو تأويل مقبول لأن الصحابة والتابعين كانوا على علم بتأويل القرآن الكريم الذي فهموه وفسروه كله ولا يجوز التوقف وترك بيان معنى الآية من آيات القرآن الكريم، لأن الله أمرنا أن نتدبر القرآن ونفهمه، والرسول ﷺ لم يترك هذا من غير بيان للصحابة.

وأما النوع الآخر من التأويل، الذي قال به رجال علم الكلام، فهو أمر آخر غير النوع الأول، إنه في اصطلاحهم الخاص كما يذكر ابن تيمية نفسه «صرف اللفظ عن المعنى المدلول عليه، المفهوم منه إلى معنى آخر يخالف ذلك»، ويرى ابن تيمية أن في معالجة نصوص الأنبياء عند المتكلمين

طريقتين : طريقة التبديل وطريقة التجهيل ، أما أهل التبديل فهم نوعان : أهل الوهم والتخيل ، وأهل التحريف والتأويل .

ويشرح أقوال أهل التحريف والتأويل ويقول عنهم أنهم يجتهدون في تأويل أقوال الأنبياء إلى ما يوافق آرائهم بشتى أنواع التأويلات ، ويخرجون اللغة عن طريقتها المعروفة ويستعينون بغرائب المجازات والاستعارات ، ثم إن عقلاء المؤولين يعلمون أن أكثر ما يتأولونه لا يطابق المعنى الذي يريده الأنبياء من كلامهم ، ويجعلون الكلام أحياناً ما ليس يقصد به ، وقد يكون تأويلهم من باب دفع المعارض وحمل اللفظ على ما يمكن أن يريد متكلم بلفظه لا مراداً لمتكلم به . ويرى ابن تيمية : أن التأويل الذي يقصد به بيان مراد المتكلم وتفسير كلامه وهو تأويل كاذب ، لذلك كان أكثر المؤولين برأيه لا يجزمون بالتأويل بل يقولون : يجوز أن يراد كذا ، وغاية ما معهم إمكان احتمال اللفظ .

ويصل بعد ذلك إلى المراد من لفظ التأويل في القرآن الكريم فيقول : «إن لفظ التأويل في القرآن الكريم يراد به ما يؤول الأمر إليه ، وإن كان موافقاً لمدلول اللفظ ومفهومه في الظاهر ، كما يراد به تفسير الكلام وبيان معناه ، وإن كان موافقاً له ، وهو اصطلاح المفسرين المتقدمين كمجاهد وغيره ، ويراد به أيضاً صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال

المرجوح لدليل يقترن بذلك، ويجد ابن تيمية أن لفظ التأويل بمعنى صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح إنما يوجد في كلام بعض المتأخرين، أما الصحابة والتابعون لهم وسائر أئمة المسلمين وغيرهم فلا يخصّون لفظ التأويل بهذا المعنى، بل يريدون بالتأويل المعنى الأول والثاني، أي ما يؤول الأمر إليه وإن كان موافقاً لمدلول اللفظ ومفهومه في الظاهر، وهذا هو المعنى الأول، أما المعنى الثاني للتأويل فهو تفسير الكلام وبيان معناه وإن كان موافقاً له، فالتأويل بهذا المعنى هو ما ارتضاه السلف وارتضاه ابن تيمية وأقره، أما غير ذلك من أنواع التأويلات فما هو إلا من أنواع الضلالات والتجهيلات.

أما عن الآيات القرآنية التي ذكر الله فيها أنها متشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله، فيقول ابن تيمية: إن الله تعالى نفى عن غيره علم تأويلها لا علم تفسيرها ومعناها، فإنه لما سئل الإمام مالك عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١)، كيف استوى؟، قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فبيّن أن معنى الاستواء معلوم، وأن كيفية الاستواء مجهولة، فالكيف المجهول هو من التأويل

(١) سورة طه، الآية: ٥.

الذي لا يعلمه إلا الله، وأما ما يعلم من الاستواء وغيره، فهو من التفسير الذي بين الله ورسوله، والله تعالى أمرنا أن نتدبر القرآن، وأخبرنا أنه أنزله لنعقله، ولا يكون التدبر والتعقل إلا لكلام بيّن المتكلم مراده، وأما من تكلم بلفظ يحتمل معاني كثيرة، ولم يُبيّن مراده بها، فهذا لا يمكن أن يفهم ولا أن يعقل.

والخلاصة، هي أن عامة الذين يزعمون أن كلام الله يحتمل وجوهاً كثيرة، لا يقول إلا باطلاً حسب ابن تيمية بل في كلامهم من الكذب في السمعيات نظير ما فيه من الكذب في العقليات، ويعتقد ابن تيمية أن التأويل المبني على المجاز، والذي يدفع إلى الاعتقاد بالباطل هو بدعة، لا حاجة للدين بها، ولا يمكن قبولها والتأويل عنده عين الضلال والانحراف عن طريق السنّة والعقيدة الصحيحة^(١).

◀ ب - حجية عمل السلف:

ترد كلمة السلف كثيراً في عبارات ابن تيمية، بحيث أن المراجع لمصنفاته يجد الكثير من العبارات التي تقول: لم

(١) محمد حسني الزين، منطق ابن تيمية، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٩ - ٢٢٦، بتصرف.

يعمل به السلف، أو لم يقل به السلف، أو هذا ما ارتضاه السلف... إلخ، فما هو المقصود من عبارة السلف، ومن هم؟ وكيف أصبح عملهم حجة على المسلم بحيث لا بد من الإقتداء بهم، والسير على خطاهم؟ السلف في اللغة كما في لسان العرب^(١): السلف والسليف: الجماعة المتقدمون، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلْفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾^(٢)، ويقرأ: سُلْفًا وسُلْفًا، قال الزجاج: سُلْفًا جميع سليف أي جمعاً قد مضى، ومن قرأ سُلْفًا فهم جمع سُلْفَةٍ أي عصابة قد مضت، وقيل سَلَفَ الإنسان من تقدمه من آبائه وذوي قرابته، ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين: السلف الصالح، ويعبر عنه، السلف الصالح، في الاصطلاح الفقهي بالإجماع، والغاية من هذا الاصطلاح معرفة رأي هذا السلف في حكم ما.

ولقد تعددت الآراء حول شمولية هذا القول، فمنهم من قال: بأنهم فقهاء المدينة المنورة من صحابة النبي ﷺ، كالإمام مالك بن أنس، ومنهم من قال: إنهم مجموعة الصحابة، وهذا القول للإمام داوود الظاهري، بينما ذهب آخرون للاقتصار على مجموع الخلفاء الراشدين، كما في

(١) ابن منظور، لسان العرب، مرجع سبق ذكره، مادة: سلف.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٦.

موسوعة الإجماع^(١) ، أما عند ابن تيمية فيقول: إن معنى الإجماع هو أن يجتمع علماء المسلمين على حكم من الأحكام، وإذا ثبت ذلك لم يكن لأحد أن يخرج عن إجماعهم، فإن الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولكن كثيراً من المسائل يظن بعض الناس فيها إجماعاً ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون القول الآخر أرجح في الكتاب والسنة^(٢).

ومن الطبيعي أن تكون المسائل المجمع عليها قليلة في رأي ابن تيمية طالما أنه يشترط لصحة الإجماع أن يكون إجماعاً من علماء المسلمين كافة في عصر من العصور، ثم أن يكون سنده نصاً عن الرسول، وبعبارة أخرى فإن الإجماع حتى يكون حجة وأصلاً من أصول الفقه كما في الإتجاه السني، فلا بدّ له من سند من النصوص الواردة عن النبي ﷺ، ولهذا: نجد ابن تيمية ينكر القول بأن الإجماع هو المستند الذي يرجع إليه في أكثر مسائل الشريعة الإسلامية، فيقول: ومن قال من المتأخرين أن الإجماع مستند معظم الشريعة فقد أخبر عن حاله، فإنه بنقص معرفته بالكتاب والسنة احتاج إلى ذلك، وهذا كقولهم إن أكثر الحوادث يحتاج فيها إلى القياس لعدم

(١) صدر الدين فضل الله، التمهيد في أصول الفقه، مرجع سابق، ص ٢٧٩.

(٢) محمد حسني الزين، منطق ابن تيمية، ص ٣٢٢.

دلالة النصوص عليها، فإنه قول من لا معرفة له بالكتاب والسنة ودلالتهما على الأحكام.

ويواصل كلامه قائلاً: وقد قال الإمام أحمد بن حنبل: أنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة، أو في نظيرها، فإنه لما فتحت البلاد وانتشر الإسلام، حدثت جميع أجناس الأعمال فتكلموا فيها بالكتاب والسنة، وإنما تكلم بعضهم بالرأي في مسائل قليلة، والإجماع لم يكن يحتج به عامتهم إذ هم أهل الإجماع فلا إجماع قبلهم، ولكن لما جاء التابعون كتب عمر إلى شريح: اقض بما في كتاب الله، فإن لم تجد، فيما في سنة رسول الله، فإن لم تجد، فيما قضى به الصالحون قبلك، وفي رواية، في ما أجمع عليه الناس^(١).

بقي أن نعلم بعد ذلك رأي ابن تيمية إذا تعارض الإجماع مع نص عن الرسول، هل يؤخذ بالإجماع ويكون ناسخاً للنص؟ أو يجب ترك الإجماع والأخذ بالنص؟، يوضح ابن تيمية الأمر بالقول: الإجماع إذا خالفه نص فلا بد أن يكون مع الإجماع نص معروف به أن ذلك منسوخ، فإما أن يكون النص المحكم قد ضيعته الأمة وحفظت النص المنسوخ، فهذا ما لا يوجد قط، وهو نسبة الأمة إلى حفظ ما نيهت عن إتباعه

(١) نفس المرجع السابق، ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

وأضاعت ما أمرت باتباعه، وهي معصومة عن ذلك^(١).
وفي الختام: فإن ابن تيمية يقول: بأن الإجماع المؤيد
بنص هو حجة على المسلم، وبالتالي يجب عليه الالتزام بما
أجمع عليه الفقهاء والمتقدمين أو السلف الصالح، ونحب أن
نشير هنا إلى أننا لم نقم بالتعليق على ما ورد من آراء في
الجزئيات السابقة، تاركين إياه إلى الفصل الأخير في فقرة
عنوانها: النتائج العامة.

(١) نفس المرجع السابق، ص ٣٢٥. والمفارقة هنا: أن ابن تيمية قد أعطى حكم
العصمة للأمة!!

٣ - أهم القائلين بعدم جواز التوسّل

نحاول في هذه الجزئية أن نشير إلى بعض أهم القائلين بعدم جواز التوسّل، من خلال ذكر بعض المصادر القائلة بذلك، والتي تناول أصحابها هذه المسألة، إمّا لجهة الاستدلال بعدم الجواز من خلال القرآن الكريم والحديث المطهر، وإمّا لجهة دحض مزاعم القائلين بالجواز والرد عليها، لكن الفرق الحادث هنا أن هؤلاء الكتاب ينتمون إلى مذهب وتيار فكري واحد كما رأينا في الفصل الذي معنا، بخلاف الكتاب الذين قالوا بالجواز، إذ إنهم ينتمون إلى معظم المذاهب والتيارات الفكرية الإسلامية الأخرى، ومن أبرز هذه المصادر التي قالت بعدم جواز التوسّل:

١ - قاعدة جلييلة في التوسّل والوسيلة، لمؤلفه أحمد بن عبد الحلیم المعروف بابن تيمية، وهو من مصادر هذا الموضوع.

٢ - في عقائد الإسلام وجواب أهل السنة النبوية في نقد كلام

- الشيعة والزيدية، لمؤلفه عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المعروف بابن الشيخ.
- ٣ - التوسّل: أنواعه وأحكامه، لمؤلفه محمد ناصر الدين الألباني، وهو من مصادر هذا الموضوع أيضاً.
- ٤ - منطق ابن تيمية، لمؤلفه محمد حسني الزين، وهو من المصادر المعتمدة في هذا الكتاب.
- ٥ - الجواب المبين في حكم التوسّل بالنبي أو بأحد الصالحين، لمؤلفه الشيخ مالك بن خالد بن علي جديدة.
- ٦ - الرسالة التدمرية في مجمل اعتقاد السلف، لمؤلفه ابن تيمية الحراني.
- ٧ - رفع الملام عن الأئمة الأعلام، لمؤلفه ابن تيمية الحراني.
- ٨ - تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، لمؤلفه محمد ناصر الدين الألباني.
- ٩ - دمعة على التوحيد وحقيقة القبورية وآثارها في واقع الأمة، صادرة عن مجلة البيان، إصدار المنتدى الإسلامي.
- ١٠ - كتاب التوحيد، لمؤلفه الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزات.

- ١١ - المجموعة المفيدة في العقيدة، لمؤلفه الشيخ محمد بن سليمان التميمي .
- ١٢ - التحقيق والإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة على ضوء الكتاب والسنة، لمؤلفه الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز .
- ١٣ - حقوق دعت إليها الفطرة وقررتها الشريعة، لمؤلفه الشيخ محمد الصالح العثيمين .
- ١٤ - أخطاء في العقيدة، مقالة للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز .
- ١٥ - أنذرتكم النار، مقالة لخالد آل فريج .
- ١٦ - العقيدة أولاً أو ست رسائل مهمة، مجموعة من مشايخ المدينة المنورة .

الفصل الرابع

محاولات لمعالم جديدة ورؤية مختلفة

- ١ - معالم جديدة وصعوبات متوقعة.
- ٢ - ما يجوز وما لا يجوز التوسّل به (استعراض عام).
 - أ - الموارد التي يجوز التوسّل بها عند القائلين بالجواز
 - ب - الموارد التي يجوز أو لا يجوز التوسّل بها عند المعترضين: ما يجوز التوسّل به عندهم، وما لا يجوز التوسّل به عندهم.
- ٣ - آثار التوسّل على صعيد الفرد والجماعة لجهة الأثر الديني والاجتماعي.
 - أ - آثار التوسّل عند القائلين بجوازه.
 - ب - قول المعترضين على التوسّل (حول هذه الآثار).

١ - معالم جديدة وصعوبات متوقعة

تحدثنا عن التوسّل، وعرضنا آراء كلا الفريقين المؤيدين له والمعتريين عليه بأدلتهم العقلية والنقلية، وفي ما يلي نحاول أن نتعرف إلى معالم نظرة كلامية جديدة نسبياً وقديمة فعلياً، أما وجه قدمها فلأنها نقدية تطويرية بحيث أن الفكر الإنساني ومنذ اليوم الأول لانفتاحه على الكون بموجوداته ومعتقداته قام بملاحظة هذه الموجودات والمعتقدات بالتحليل والنقد، واضعاً الأسس والقواعد التي كانت نتيجة لتعقله لها، ولا يخفى ما للممارسة النقدية من دور كبير وفاعل في تكامل الأفكار، وتواصلها وتطويرها، وتهذيبها وإعادة صياغتها، واكتشاف نقاط ضعفها وقوتها، بيد أن هذه الممارسات النقدية لم تقتصر على مجال فكري واحد، بل تعدته إلى كافة المجالات الفكرية والعلمية، وعلوم الشريعة منها، وساهمت هذه الممارسات النقدية على مدى العصور في تطور علوم الشريعة بأقسامها المختلفة من أصول وفقه وحديث وعقائد... الخ، فهي بهذه السمات قديمة.

أما لجهة أنها جديدة وخاصة أنها قد خرجت من رحم مذهب القائلين بجواز التوسّل، فلأنها ركزت على الأساليب والممارسات، كما ركزت على تهذيب بعض المعتقدات من خلال توضيح وتصحيح بعض النصوص الواردة في هذا الشأن، خاصة أن القائلين بجواز التوسّل تركت جهودهم على محاولة إثبات شرعية هذا الأمر، وانسجامه مع الشريعة في مقابل المعترضين، لهذه الأسباب فهي جديدة نسبياً، ووجه النسبية هنا أنها لم تتبلور بعد بشكل كامل بحيث يصح أن يطلق عليها اسم نظرية كلامية جديدة، كما أنها لم تقبل بعد بشكل كلي لدى شريحة واسعة من الناس، كما هو حال الحركات الفكرية التطورية.

وللتعرف إلى معالم هذه النظرية، لا بد لنا من التعرض لأهم النقاط والأفكار التي أثارها وعلّقت عليها، وذلك دون التعرض لأصل الموضوع وهو التوسّل، الذي تعترف به وتقول بمشروعيته، وبداية ننتقل من أهم نقطة علّقت عليها هذه الرؤية الجديدة بالقول: إن الاستشفاع بالأنبياء والأئمة والأولياء ليس شركاً، لأن الله جعل لهم حق الشفاعة، وأذن لهم بها، ولأنهم عباد الله المكرمون الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، ولهذا تعود قضية التوسّل بهم إلى الله، تماماً كالتوسّل بأسمائه الحسنی، ولهذا فإن الاستشفاع بالأنبياء والأولياء لا

يمثل خروجاً عن التوحيد والاستعانة بالله، لأنه يرجع في الحقيقة إلى طلب المغفرة من الله، والنجاة من النار من خلال ما إقتضته إرادة الله وحكمته في ارتباط عفوه بشفاعته هذا النبي أو الولي.

وعليه: نحن نقول أننا نتوسّل ونرفع الأمور إلى الله ﷻ، نتوسّل بالله في ذاتهم وبحقهم، أي مما جعل الله لهم من حق في هذا المجال، وليس شركاً بالله، بل هو مظهر لتوحيد الله^(١)، ويذهب هذا الفريق إلى القول: بأن الشفاعة على نحو الحقيقة والأصالة لله ﷻ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) لأنه تعالى يملك الأمر كله فله ملك السموات والأرض، وهو تعالى يمنح الشفاعة للأنبياء والأولياء ليقوموا بدور الشفعاء، فهم يملكونها بتمليكه ويمارسونها بإذنه... إنه ليس هناك إلا كلمته وإرادته، فلا يملك أحد أن يتدخل في إنقاذ أحد من مصير محتوم، أو رفعه إلى درجة عالية من خلال قوة ذاتية أو موقع مميز خاص، إلا بإذنه الذي يلقيه إلى بعض عباده المقربين، في ما يريد وفي ما لا يريد.

(١) عبد السلام زين العابدين، مراجعات في عصمة الأنبياء، الطبعة الرابعة، بدون دار نشر، بيروت، ٢٠٠١، ص ٤٨٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٤.

وهذا ما أكدته روايات أهل البيت (رضوان الله عليهم) كرواية الإمام الصادق عليه السلام في كتابه (الكافي): واعملوا إنه ليس يغني من الله أحد من خلقه، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا من دون ذلك، من سرّه أن تنفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه، ونفي استقلالية الشفيع ليس معناه، نفي تأثيره ودوره الفاعل لتكون الشفاعة شكلية صورية تمثيلية، ومجرد مراسم شكلية، بل إن الشفيع هو الوسيلة أو السبب في النتائج التي يتمثل فيها العفو الإلهي، فقد اقتضت إرادة الله وحكمته في ارتباط عفوّه بشفاعة هذا النبي أو الولي.

وعندما نتشفع بهم إليه، أي نجعلهم شفعاءنا إلى الله في قضاء الله سبحانه وتعالى حوائجنا... وليس معنى ذلك أن الشفاعة صورية بل هي حقيقية، ولكن ضمن البرنامج الإلهي، فأنت حينما تطلب حاجتك، إنما تطلبها من الله العليّ القدير، وتجعل رسول الله ووليه باباً من الأبواب التي يمكن أن يفتحها الله لك، لما جعله الله له من ذلك، ولهذا فإن الذين يعتقدون بشرعية الشفاعة والتوسّل والأنبياء والأولياء، فإنما ينطلقون من موقع التوجه إلى الله بأن يجعلهم الشفعاء لهم، وأن يقضي حاجاتهم بحق هؤلاء، مما جعله الله لهم من حق، وإذا كانوا يعتقدون أنهم الشفعاء فلأن الله أكرمهم بذلك، وحدد لهم

حدوداً في ما يشفعون له: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(١).

ما يستخلص من هذا الكلام هو أن هذه الرؤية الجديدة حاولت من خلال إثارة هذه النقطة التي تعرضنا لها آنفاً التأكيد على قضيتين أساسيتين:

الأولى: التأكيد على أن التوسّل والشفاعة من المبادئ القرآنية الثابتة، وبالتالي لا مناص لأحد من الاعتراض عليها أو التشكيك فيها، خاصة أن التوسّل والاستشفاع بالأولياء مظهر لتوحيد الله، وبهذا القول تلتقي هذه المدرسة مع جميع القائلين بالجواز.

الثانية: التمييز بين الشفيع والشافع الحقيقي، وهو الله سبحانه وتعالى، وبالتالي القول بأن الشفاعة ليست ذاتية للشفيع على نحو الاستقلال بل هي تمليلية من الله سبحانه، كما أنه إذن إلهي لهؤلاء الأنبياء والأولياء بممارسة هذا الدور وفق البرنامج الإلهي.

وهذا التمييز المذكور هو من النقاط التي قد تسجل على القائلين بالجواز عموماً، بحيث أن هذه الدقة في التعبير لم

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨. وفي نفس الجزئية يمكن مراجعة: عبد السلام زين العابدين، مراجعات في عصمة الأنبياء، مرجع سبق ذكره، ص ٤٨٧، بتصرف من جانبنا.

تظهر في تعابيرهم مما أدى إلى وجود حالة من الضبابية حول هذا الأمر عند العديد من الناس، وبالتالي ضعف مقولة القائلين بالجواز، استفاد منه المعترضون.

- أما النقطة الثانية: والتي أثارها هذه المدرسة الناشئة فهي القول بضرورة انسجام السلوك مع عقيدة التوحيد حتى في شكله التعبيري، ذلك أننا نجد في سلوك بعض الزائرين لمراقدة الأنبياء ﷺ والأولياء (رضوان الله عليهم) ما يكون في ظاهره وشكله خاطئاً، وإن كان في روحه صحيحاً، حيث نجد البعض يتوجهون إلى النبي أو الإمام أو الولي في طلب حاجاتهم، وكأنهم هم الذين يشفون المرضى، ويقضون الحاجات، وما إلى ذلك.

وعليه: فإنه لا يجوز أن تطلب الحوائج من المخلوق حتى لو كان نبياً أو إماماً، بل أنهم أبواب طلب الحوائج من الله ﷻ، ولهذا سمي الإمام الكاظم رضي الله عنه بـ (باب الحوائج) وهذا لا يعني رفض أو عدم شرعية التوسّل بهم (رضوان الله عليهم أجمعين)، بل هي رفض أن تكون النية بنفس نية التوجه التي تقول فيها: (يا الله)، لأن هناك فرقاً بين التوجه إلى الخالق المعبود، والتوجه إلى المخلوق العبد.

وهذا لا ينفي التوسّل بالنبي والإمام، نعم أن تتوسّل بمحمد ﷺ ليشفع لك إلى الله، فهذا لا يضر، وقد يقال: إنه

لا يوجد إنسان مسلم يعتقد بألوهية الرسول أو الإمام حتى يكون قوله: يا محمد... تماماً كما يدعو الله ﷻ، ونرد على ذلك بالقول: صحيح أنه لا يوجد، ولكن قد يتبادر إلى الآخرين من ظاهر الكلام ذلك، ولأننا نعتقد أن محمداً ﷺ وآله وأصحابه قد وصلوا إليه من مقام الشفاعة والولاية لتجسيدهما العبودية لله ﷻ بأعلى درجاتها، وأرقى مستوياتها، فكانا أهلاً للاستشفاع والتوسل بهما إلى الله تعالى.

وهذا ما نبه إليه أهل البيت ﷺ أنفسهم في موارد عديدة، فقد جاء بخصوص بعض التعابير المتعارفة في أوساط الناس قولهم: لولا فلان لهلكت، أو القسم بحياة الآخر كقولنا: لا وحياتك، وأمثال هذه التعابير، ورغم أن النية محلها القلب والله أعلم بالسرائر، فإن هذا لا يليق ولا يصح، يقول تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(١).

وقد روى العياشي في تفسيره عن مالك بن عطية، عن أبي عبد الله الصادق ﷺ في الآية، قال: هو الرجل يقول: لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لأصبت بكذا وكذا، ولضاع عيالي، ألا ترى أنه قد جعل لله شريكاً في ملكه يرزقه ويدفع عنه؟، وهنا سأل مالك بن عطية الإمام الصادق ﷺ، لو أن الرجل

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

يقول: لولا أن منّ الله علي بفلان لهلكت، فقال الإمام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: نعم، لا بأس بهذا... (١).

يظهر جلياً من خلال إثارة هذه النقطة الحرص الزائد على عقيدة التوحيد، من خلال تنزيها عن أية شائبة شرك قد تظهر في الممارسة أو التعبير، بيد أن هذا الحرص المذكور قد غفلت عن ذكره باقي الآراء القائلة بالتوسّل.

- نأتي إلى النقطة الثالثة: التي أثارها هذه الرؤية، والتي تبلورت جلياً من خلال رفض أخذ الموروث الإسلامي بكلّيته واعتباره من المسلمات المقدسة التي لا يجب المساس بها أو الاقتراب منها، وذلك في الدعوة إلى عدم تقديس غير المقدس (٢) على اعتبار أن معظم المشاكل التي يعاني منها المسلمون تنطلق من خلال تقديس هذا الموروث بغثّه وسمينه، والتوقف على فهم عقول بعض الرجال واستنتاجاتهم، وتأتي عبارة: هم رجال ونحن رجال، لهم فهمهم ولنا فهمنا، لتؤكد هذا المعنى المذكور، لذلك كان التعاطي مع هذا الموروث من

(١) عبد السلام زين العابدين، مراجعات في عصمة الأنبياء، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢٥ - ٥٢٩، بتصرف من جانبنا.

(٢) هذه العبارة وغيرها مما سوف يرد، اقتطفناها من السيد محمد حسين فضل الله، وذلك أثناء لقاءاتنا المتكررة معه في منزله العامر، وخصوصاً اللقاءات العامة التي كان يجريها مساء كل أربعاء في دارته أيضاً.

قبل هذه المدرسة الناشئة خاضعاً للنقد العلمي والتدقيق وفق منهج خاص برز في العديد من النتاجات الفكرية والشرعية تحديداً.

ومما شمله النقد والتدقيق من قبل هذه المدرسة الجديدة، الأدعية عموماً، والتي تقرأ في زيارات أهل البيت (رضوان الله عليهم) على نحو الخصوص، وكانت النتيجة القول بضعف أسانيد العديد من هذه الزيارات والأدعية، كدعاء التوسّل المروي عن محمد بن بابويه، المذكور في العديد من كتب الأدعية، وأيضاً الدعاء المعروف بالزيارة الجامعة المروي عن الشيخ الصدوق والذي ورد استحباب قراءته عند أهل البيت (رضوان الله عليهم أجمعين).

هذا على سبيل المثال لما له من ارتباط بموضوع الكتاب، أما باقي المواضيع الأخرى كالتفسير والرجال والأصول والفلسفة، فللمدرسة الناشئة مواقف خاصة منها، أغفلنا عن ذكرها لعدم اختصاصها بهذا الموضوع، وبناء على ما تقدم، أصبح بالإمكان ملاحظة هذا الفرق الحاصل بين هذه المدرسة الناشئة، والتي تقول بجواز التوسّل، وبين باقي القائلين به أيضاً، ويتبدى الفرق في اللغة، وفي الأسلوب، وفي طريقة تناول، وتظهر دقة هنا في المعالجة والدراسة، ويحتمل أن يكون منشأ هذا التمايز هو اهتمام باقي القائلين بالجواز بإظهار

مدى مشروعيتها انطلاقاً من القرآن الكريم والسنة المطهّرة في أجواء كانت مشحونة بالتشكيك والاعتراض، في حين انطلقت هذه المدرسة الجديدة في أجواء وظروف مغايرة، ساعدتها على الملاحظة والتحليل وصولاً إلى مرحلة النقد، وإبداء الرأي.

◀ الصعوبات المتوقعة:

من الطبيعي أن تخضع كل المحاولات النقدية بدورها إلى النقد، وهذا مظهر سليم وصحي يساهم في تقدم العلم والمعرفة الإنسانية، وخاصة أن هذا التفكير الذي أنتج النقد من خلال الملاحظة والتدليل على أماكن الخطأ والثغرات في قضية ما، يساهم في إثراء العقل من خلال تحفيز العقل الآخر على إعادة النظر في ما وصل إليه، كذلك لمساهمته في رد النقد بالدليل والحجة.

لكن يجب أن يتم ذلك في أجواء علمية رصينة، حتى لا يتحول النقد من دائرة التفكير إلى دائرة التكفير، ومن قراءة النصوص إلى قراءة النوايا والصدور وخفايا النفوس، وعندها تنكفيء الحركة النقدية إلى ممارسات إغائية إقصائية قمعية، ومحاولات لإثارة الغرائز والمشاعر والعواطف وتصفية الحسابات، فيما يبقى العقل معطلاً، والضمير مغيباً، والوعي

مصادراً، لينقلب النقد إلى قمع، والحوار والجدال إلى تنازع وتحارب واقتتال^(١).

إلا أنه تبقى هناك بعض الصعوبات التي تعترض أي نشاط أو عمل، وخاصة في الميادين التي لها علاقة بالجانب العقائدي، حيث أن ارتباط العقيدة بالنفس، الناجم عن التربية والبيئة والاعتقاد الخاص، بحاجة إلى مجهودات كبيرة من أجل تغييرها أو تصحيحها، لكن أهم ما قامت به هذه المدرسة الناشئة، أنها خرقت الجدار الوهمي للمحظورات الفكرية، وهذا بحد ذاته يعتبر إنجازاً نوعياً، وطرح الأفكار والآراء في جملة الآراء الأخرى، يؤمن مادة جديدة للمستقبل، تصلح للنقاش وللنقد أيضاً.

ويروى أن الطباطبائي صاحب (تفسير الميزان)، وهو من الفلاسفة المسلمين المعروفين، كان يقول بأصالة الماهية واعتبارية الوجود طوال عشرين عاماً قبل أن يعود ويقول بأصالة الوجود واعتبارية الماهية، ولا يمكن فهم هذا التحول في الفكر والمعتقد إلا من خلال النقد العلمي الذي يظهر أماكن الخلل أو الخطأ، وهذا أمر إيجابي.

(١) عبد السلام زين العابدين، مراجعات في عصمة الأنبياء، مرجع سبق ذكره،

ويبقى أخيراً أن نشير إلى أن السيد محمد حسين فضل الله يعتبر من أحد رواد هذه المدرسة الجديدة بالإضافة إلى السيد علي الخامنائي الذي يساهم بدور فاعل أيضاً في هذا الخصوص، وخاصة لجهة ما قاله بحرمة بعض الممارسات التي يقوم بها بعض الزوار لمراقدة أهل البيت (رضوان الله عليهم)^(١).

كما يعتبر الشيخ عبد الله الهرري، من العاملين في هذا المجال، وذلك من خلال العديد من الإصدارات التي تنشرها له جمعية المشاريع الإسلامية.

(١) ما ذهب إليه السيد محمد حسين فضل الله، حصلنا على نصه من خلال مكتبه في بيروت.

٢ - ما يجوز وما لا يجوز التوسّل به (استعراض عام)

بعد أن تكلمنا عن آراء القائلين بجواز التوسّل، ومنهم المدرسة الكلامية الناشئة، وعن آراء المعترضين مع ذكر أهم القائلين بهذه الآراء، والآن نتعرف إلى الموارد التي يجوز أو لا يجوز التوسّل بها عند كل هؤلاء، وخاصة أنه تبين لنا أن الفريق المعترض لا يرفض القول بجواز التوسّل بالمطلق، بل أنه يرفض القول بجواز التوسّل بموارد دون الموارد الأخرى، فما هي هذه الموارد المشتركة، وما هي الموارد المتباينة؟ للجواب على ذلك سنبدأ بذكر هذه الموارد وفق ما سبق من تقسيمات البحوث في الفصول السابقة.

◀ أ - الموارد التي يجوز التوسّل بها عند القائلين بالجواز:

فإنهم لا يرون بأساً في التوسّل بأسماء الله وصفاته، وبالقرآن الكريم، وبالنبي ﷺ والأنبياء عموماً، والأولياء بالمعنى الأعم الذي يشمل كافة أوصياء الأنبياء والرسل، والأولياء بالمعنى الأخص الذي يشمل آل بيت النبي ﷺ،

وبالصحابة، والمقصود عندهم بالصحابة كل أولئك الذين اتبعوا وصايا النبي ﷺ بمودة أهل البيت (رضوان الله عليهم)، والالتزام بخطهم ونهجهم، وكذلك بأهل العلم والصلاح الذين استشهدوا أو ماتوا متفانين في نصرة أهل البيت ومذهبهم، أحياء كانوا جميعاً أم أمواتاً.

وفي ذات الدائرة اقتصرت المدرسة الناشئة على القول بجواز التوسّل بالإضافة إلى أسماء الله وصفاته والقرآن الكريم والنبي والأنبياء، والأولياء الأوصياء من آل بيت النبي (رضوان الله عليهم) فقط، لما يوجد من خصوصية في هذا الجانب، أحياء كانوا أم أمواتاً، وكذلك أهل العلم والصلاح.

◀ ب - الموارد التي يجوز أو لا يجوز التوسّل بها عند المعترضين:

وتنقسم هذه الموارد عندهم إلى دائرتين أيضاً: ما يجوز التوسّل به، وما لا يجوز التوسّل به:

- ما يجوز التوسّل به عندهم: التوسّل إلى الله تعالى باسم من أسمائه الحسنی، أو صفة من صفاته العلیا، التوسّل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به الداعي من قبيل أن يقول المسلم: (اللهم بإيماني بك، وبمحبتي لك، وإتباعي لرسولك اغفر لي)، والتوسّل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح له من

قبيل أن يكون المسلم وهو في حالة ضيق شديد، ويعلم من نفسه التفريط في جنب الله تبارك وتعالى، فيذهب إلى رجل يعتقد فيه الصلاح والتقوى، أو الفضل والعلم بالكتاب والسنة، فيطلب منه أن يدعو له الله جل علاه، ليفرج عنه كربته، ويزيل عنه همه، والمدعو له شرط في صحة هذا الأمر.

- ما لا يجوز التوسّل به عندهم: فإنهم رفضوا كل أنواع التوسّلات ما عدا الأنواع الثلاثة الآنف الذكر، وشمل هذا الرفض عنهم ذات النبي ﷺ ومقامه، وكذلك باقي الأنبياء والرسل، وأيضاً كل الذوات والمخلوقات، ونقل الألباني عن (الفتاوى الهندية) وعن كتاب (شرح الكرخي) ما مضمونه: قال بشر بن الوليد: حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: بمعقد العز من عرشك، أو بحق خلقك، وهو قول أبي يوسف، قال أبو يوسف: معقد العز من عرشه هو الله، فلا أكره هذا، أكره أن يقول: بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام، قال القدوري: المسألة (بخلقه) لا تجوز لأنه لا حق للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقاً^(١)، وهذا

(١) محمد ناصر الدين الألباني، التوسّل: أنواعه وأحكامه، مرجع سبق ذكره،

ما نقله ابن تيمية، واحتج به في كتابه (التوسّل والوسيلة)، وبناءً على ما تقدم: فإنهم حصروا جواز التوسّل بالموارد الثلاث التي جاءت في الفقرة الأولى، ورفضوا كل ما عداهم، واعتبروه شركاً وضلالاً!!!

ونختم هذه الجزئية، بنقل ما قاله ابن تيمية في هذا الخصوص، وإذا تبين ما أمر الله به ورسوله، في حق أشرف الخلق وأكرمهم على الله ﷺ، وسيد ولد آدم وخاتم الرسل والنبيين، وأفضل الأولين والآخرين، وأرفع الشفعاء منزلة وأعظمهم جاهاً عند الله تبارك وتعالى، تبين أن من دونه من الأنبياء والصالحين أولى بأن لا يشرك به، ولا يتخذ قبره وثناً يعبد، ولا يدعى من دون الله لا في حياته ولا في مماته...!!!^(١).

◀ ٣ - أثار التوسّل على صعيد الفرد والجماعة لجهة الأثر الديني والاجتماعي:

ذكر كلا الفريقين بعض الآثار المترتبة على القول بجواز أو عدم جواز التوسّل، وأسهبوا في شرحها وتعليلها، كل بحسب مذهبه ومعتقده في هذا الأمر، لذا رأينا ضرورة الإطالة على ما قالوه، ولو بإيجاز لتغطية كافة جوانب الموضوع.

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٣١.

◀ أ - آثار التوسّل عند القائلين بجوازه:

نبدأ مع القائلين بجواز التوسّل لنرى ما تلك الآثار التي تنعكس على الفرد والجماعة لجهة الأثر الديني أو لجهة الأثر التربوي الاجتماعي:

- ذكر محمد رضا المظفر جملة من هذه الآثار، حيث قال: في زيارة القبور من الفوائد الدينية والاجتماعية ما تستحق العناية من أئمتنا، فإنها في الوقت الذي تزيد من رابطة الولاء والمحبة بين الأئمة وأوليائهم، وتجدد في النفوس ذكر مآثرهم وأخلاقهم وجهدهم في سبيل الحق، وتجمع في مواسمها أشتات المسلمين المتفرقين على صعيد واحد، ليتعارفوا ويتآلفوا، ثم تطبع في قلوبهم روح الانقياد إلى الله تعالى والانقطاع إليه وطاعة أوامره، وتلقنهم في مضامين عبارات الزيارات البليغة الواردة عن آل البيت حقيقة التوحيد والاعتراف بقدسية الإسلام، والرسالة المحمدية، وما يجب على المسلم من الخلق العالي الرصين والخضوع إلى مدبر الكائنات وشكر آلائه ونعمه، فهي من هذه الجهة تقوم بنفس وظيفة الأدعية المأثورة، بل بعضها يشتمل على أبلغ الأدعية، مثل الزيارة المروية عن الإمام زين العابدين عليه السلام، حينما زار قبر جده علي بن أبي طالب عليه السلام.

كما تفهم من هذه الزيارات المأثورة مواقف الأئمة (رضوان الله عليهم) وتضحياتهم في سبيل نصره الحق، وإعلاء كلمة الدين، وتجردهم لطاعة الله تعالى، وقد وردت بأسلوب عربي جزل، وفصاحة عالية، وعبارات سهلة يفهمها العامة والخاصة، وهي محتوية على أسمى معاني التوحيد ودقائقه والدعاء والابتهاال إليه تعالى، ثم أن في آداب أداء الزيارة أيضاً من التعليم والإرشاد ما يؤكد من تحقيق تلك المعاني الدينية السامية، من نحو رفع معنوية المسلم، وتنمية روح العطف على الفقير، وحمله على حسن العشرة والسلوك، والتحبب إلى مخالطة الناس.

ومن آدابها: أن يغتسل الزائر قبل الشروع بالزيارة ويتطهر، وقد ورد في المأثور أن يدعو الزائر بعد الانتهاء من الغسل لغرض تنبيهه على تلكم الأهداف العالية فيقول: اللهم إجله لي نوراً وطهوراً وحرزاً كافياً من كل داء وسقم ومن كل آفة وعاهة، وطهر به قلبي وجوارحي وعظامي ولحمي ودمي وشعري وبشري ومخي وما أقله الأرض مني، واجعله لي شاهداً يوم حاجتي وفقري وفاقتي.

وأن يرتدي أحسن وأنظف ما عنده من الثياب، فإن في هذه الأناقة في الملبس في المواسم العامة ما يحجب الناس بعضهم إلى بعض، ويقرب بينهم، ويزيد في عزة النفوس،

والشعور بأهمية الموسم الذي يشترك فيه، وأن يتطيب ما وسعه الطيب، وفائدته كفائدة أدب ارتداء أحسن الثياب، وأن يتصدق على الفقراء بما يعن له أن يتصدق به، ومن المعلوم فائدة التصدق في مثل هذه المواسم، فإن فيه معاونة المعوزين وتنمية روح العطف عليهم.

ومن الآداب أيضاً: أن يمشي على سكينة ووقار غاضاً من بصره، وواضح ما في هذا من توقيير للحرم والزيارة، وتعظيم المزار وتوجه إلى الله تعالى وانقطاع إليه، مع ما في ذلك من اجتناب مزاحمة الناس ومضايقاتهم في المرور وعدم إساءة بعضهم إلى بعض، وأن يكبر بقوله: «الله أكبر» ويكرر ذلك ما شاء، وقد تحدد في بعض الزيارات إلى أن تبلغ المائة، وفي ذلك فائدة إشعار النفس بعظمة الله وأنه لا شيء أكبر من الله، وأن الزيارة ليست إلا لعبادة رب العزة سبحانه وتعظيمه وتقديسه في إحياء شعائر الله وتأييد دينه.

وبعد الفراغ من الزيارة للنبي أو الإمام يصلي ركعتين على الأقل، تطوعاً وعبادة لله العلي القدير ليشكره على توفيقه إياه، ويهدي ثواب الصلاة إلى المَزور، وفي الدعاء المأثور الذي يدعوه به الزائر بعد هذه الصلاة ما يفهم الزائر، أن صلاته وعمله إنما هو لله وحده، وأنه لا يعبد سواه، وليست الزيارة إلا نوع من التقرب إليه تعالى زلفى، إذ يقول: اللهم لك

صليت، ولك ركعت، ولك سجدة، وحدك لا شريك لك، لأنه لا تكون الصلاة والركوع والسجود إلا لك، لأنك أنت الله لا إله إلا أنت، اللهم صل على محمد وآل محمد، وتقبل مني زيارتي وأعطني سؤالني بمحمد وآله الطاهرين.

ومن آداب الزيارة: أن يلزم للنزائر حسن الصحبة لمن يصحبه، وقلة الكلام إلا بخير، وكثرة ذكر الله، والخشوع وكثرة الصلاة، والصلاة على محمد وآل محمد، وأن يغض من بصره، وأن يعدو إلى أهل الحاجة من إخوانه إذا رأى منقطعاً، والمواساة لهم، والورع عما نهى عنه، والبعد عن الخصومة والجدال، ثم أنه ليست حقيقة الزيارة إلا السلام على النبي أو الإمام باعتبار أنهم ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(١)، ويكفي أن يقول فيها مثلاً: السلام عليك يا رسول الله، غير أن الأولى أن يقرأ فيها المأثور الوارد من الزيارات عن آل البيت (رضوان الله عليهم أجمعين)^(٢)، ومن جميل ما قاله النراقي: وإذا فرغت من زيارة النبي ﷺ، فأت المنبر وامسحه بيدك وخذ برمّانتيه، وامسح بهما وجهك وعينيك، وتضرع إلى الله، وابتهل إليه، واسأل حاجتك، وتوهم صعود النبي ﷺ المنبر، ومثّل في

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٢) محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية، الطبعة الثامنة، دار الحوراء، بيروت،

١٩٨٨، ص ١٢٥ - ١٣١.

قلبك طلعت به البهية، قائماً على المنبر، وقد أحاق به المسلمون من المهاجرين والأنصار، وهو يحمد الله بأفصح الكلمات واللغات، ويحث الناس على طاعة الله، وأسأل الله ألا يفرق في يوم القيامة بينه وبينك، ويجعلك في جواره، ويعطيك منزلاً في قرب داره^(١).

كما ذكر الأميني جملة من الآثار في شأن آداب التوسّل، نقتطف منها التالي: قال الغزالي^(٢): إذا وقع بصر الزائر على حيطان المدينة المنورة وأشجارها، قال: اللهم هذا حرم رسولك فاجعله وقاية من النار، وأماناً من العذاب وسوء الحساب، وفي كتاب (مراقبي الفلاح) للفقير شرنبلالي، قال: فإذا عاين حيطان المدينة المنورة يصلي على النبي ﷺ ثم يقول: اللهم هذا حرم نبيك ومهبط وحيك، فامنن علي بالدخول إليه، واجعله وقاية لي من النار، وأماناً من العذاب، واجعلني من الفائزين بشفاعة المصطفى يوم المآب.

ومن الآداب: الغسل لدخول المدينة المنورة من بئر الحرة أو غيرها، والتطيب وارتداء الزائر أحسن ثيابه، وقال الكراماني من الحنفية: فإن لم يغتسل خارج المدينة فليغتسل

(١) محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، مرجع سبق ذكره، ٤٠٢/٣.

(٢) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، القاهرة، ١٩٧٣، ٢٤٦/١.

بعد دخولها، وقال ابن حجر: ويسن له كمالاً من الأدب أن يرتدي أنظف ثيابه، والأكمل الأبيض، إذ هو أليق بالتواضع المطلوب متطيباً، وقد يقع لبعض الجهلة عند الرؤية للمدينة نزولهم عن رواحلهم مع ثياب المهنية والتجرد من الملبوس، فينبغي زجره، نعم: النزول عن الرواحل عند رؤية المدينة من كمال الأدب، لكن بعد التطيب وارتداء نظيف الثياب.

وأن يقول: عند دخوله من باب البلد: بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، يا رب أدخلني مدخل صدق، وأخرجني مخرج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً، حسبي الله آمنت بالله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وبحق ممشاي هذا إليك، فإنني لم أخرج بطراً وأشراً، ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

ومن هذه الآداب: لزوم الخشوع والخضوع عندما يشاهد القبة فليستحضر عظمتها، يمثل في نفسه مواقع أقدام رسول الله ﷺ، فلا يضع قدمه عليه إلا مع الهيبة والسكينة، وإذا شاهد المسجد والحرم الشريف، فليزدد خضوعاً وخشوعاً يليق بهذا المقام ويقتضيه هذا المحل الذي ترتعد دونه الأقدام ويجتهد في أن يوفي للمقام حقه من التعظيم والقيام، والأفضل

أن يدخل الزائر إلى الحضرة الشريفة من باب جبرائيل، وجرت عادة القادمين من ناحية باب السلام بالدخول، وعليه أن يقف بالباب لحظة لطيفة كما يقف المستأذن في الدخول على العظماء.

قال القاضي عياض: قال ابن حبيب: يقول إذا دخل مسجد الرسول ﷺ: بسم الله وسلام على رسول الله، السلام علينا من ربنا، وصلى الله وملائكته على محمد، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك وجنتك، واحفظني من الشيطان الرجيم، وقال القسطلاني في (المواهب): يستحب أن يصلي ركعتين قبل الزيارة، وقال القاضي عياض في (الشفاء): ثم اقصد إلى الروضة وهي ما بين القبر والمنبر واركع فيهما ركعتين قبل وقوفك بالقبر تحمد الله تعالى فيهما وتساله تمام ما خرجت إليه والعون عليه، وإن كانت ركعتك في غير الروضة أجزاءك، وفي الروضة أفضل، وقال الشرنبلالي في (مراقبي الفلاح)، فتسجد شكراً لله تعالى، بأداء ركعتين غير تحية المسجد، شكراً لما وفقك الله تعالى وَمَنْ عَلَيْكَ بالوصول إليه، وقال الخفاجي في (شرح الشفاء): ويستحب القيام في حالة الزيارة كما نبّه عليه القاضي عياض بقوله: يقف وهو أفضل من الجلوس عند الجمهور.

ويتوجه بعد ذلك إلى القبر الكريم مستعيناً بالله في رعاية

الأدب في هذا الموقف العظيم، فيقف ممثلاً صورته محاذاة الوجه الشريف مستدبر القبلة، وقال ابن حجر: استدبار القبلة واستقبال الوجه الشريف هو مذهبنا ومذهب جمهور العلماء، وأن لا يرفع في الزيارة صوته ولا يخفيه بل يقتصد، وخفض الصوت عنده ﷺ أدب للجميع^(١).

◀ ب - قول المعترضين على التوسّل (حول هذه الآثار):

إن هذا الفريق الذي حرّم التوسّل بالأنبياء والأولياء بعد الوفاة، حرم بالتالي كل مقدمات هذا الأمر واعتبره شركاً وضالاً، بل تسويلات من الشياطين، ويبرز هذا المعنى واضحاً في قول ابن تيمية: وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموال من الأنبياء والصالحين والشيوخ وأهل بيت النبي ﷺ غاية أحدهم أن يجري له بعض هذه الأمور أو يحكي لهم بعض هذه الأمور، فيظن أن ذلك كرامة وخرق عادة بسبب هذا العمل، وإنما ذلك كله من الشياطين... وإنما ظهرت هذه الأحوال الشيطانية التي أسبابها الكفر والفسوق والعصيان بحسب ظهور أسبابها، فحيث قوي الإيمان والتوحيد ونور الفرقان ظهرت آثار النبوة والرسالة ضعفت هذه الأحوال الشيطانية، وحيث

(١) عبد الحسين أحمد الأمين، الغدير، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٠ - ١٧٥.

ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الأحوال الشيطانية، والشخص الواحد الذي يجتمع في هذا وهذا الذي تكون فيه مادة تمده للإيمان، ومادة تمده للنفاق يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال!!^(١)

بعد هذا القول: أصبح واضحاً رأي هذا الفريق لجهة الآثار المترتبة على القول بجواز التوسّل، وخاصة أن ابن تيمية يمثل العمدة عندهم، وإن كان بعض المعاصرين من هذا الفريق قد تناول هذا الموضوع بطريقة أخرى مع المحافظة على الأسلوب الذي اعتمده ابن تيمية.

وقد تم سرد بعض ذلك في كتاب (دمعة على التوحيد) حيث جاء فيه تحت عنوان حقيقة القبورية: وهنا نأتي إلى القبورين: كيف تبدأ علاقتهم بالقبور أو الضريح؟، وكيف تنتهي بهم إلى الشرك الأكبر أو في ما دونه من الشرك؟... تبدأ العلاقة بتقديس الرمز... رمز الصلاح والتقوى والمنزلة الرفيعة عند الله، ومن ثم: تستحب زيارة تلك البقاع، ليس لتذكر الموت والآخرة، بل لتذكر الرمز والاعتبار به، ولأن هذه الأماكن مباركة، ولأن الملائكة والأرواح تنتشر حولها، فإن دعاء الله يحسن عندها، فهو أرجح منه في البيت والمسجد

(١) ابن تيمية الحراني، التوسّل والوسيلة، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٢ - ١٣٣.

وأوقات السحر، كما أن البركة تفيض على كل شيء حول القبر، فمن أراد التزود منها فليلمس ويقبل ويتمسح، فإذا تقرر ذلك هبط إلى درجة تالية: من دعاء الله عنده إلى الدعاء به، والإقسام على الله به، أي: اتخاذه واسطة ووسيلة للاستشفاع به عند الله، فصاحب الضريح طاهر مكرم مقرب له جاه عند الله، بينما صاحب الذنب أو الحاجة يتلطح في أوحال خطيئته، غير مؤهل لدعاء الله، فإذا تقرر ذلك هبط إلى درجة أخرى: فما دام هذا المقبور مكرماً فليس بممتنع أن يعطيه الله القدرة على التصرف في بعض الأمور التي لا يقدر عليها صاحب الحاجة، فيدعي صاحب القبر، يرجي ويخشى، يستغاث به، ويطلب المدد منه، وَلِمَ لا؟ فهو صاحب السر الذي توجل منه النفوس، وترتجف له القلوب، وتتحير فيه العقول، فإذا تقرر ذلك هبط درجة ليست أخيرة، حيث يتخذ قبره وثناً، يعكف عليه، ويوقد عليه القنديل، ويعلق عليه السطور، ويبني عليه المسجد، ويعبده بالسجود له، والطواف به، وتقبيله، واستلامه، والحج إليه، والذبح عنده، ثم ينقله الشيطان درجة أخرى، إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً، وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم.!!!!

هذا هو الواقع: ليست المسألة مظاهر وطقوساً مجردة، بل هي أعمال جوارح، نتجت من أعمال قلوب، تحركها

تصورات واعتقادات رسخت في النفوس وتخللتها وذابت فيها إلى الحد الذي لم تعد فيه بارزة منفصلة عن تلك المظاهر والطقوس!!!^(١)

وهكذا يرى هذا الفريق خطورة التوسّل وآثاره على الفرد والجماعة إن لجهة أثره الديني، وإما لجهة الأثر التربوي الاجتماعي، وهم لا يفرقون بين أن يكون صاحب الضريح نبياً أو ولياً طالما أنه ميت أو مقبور كما يحلو لهم أن يسموه فالنتيجة واحدة: شرك وضلال وتسويلات شيطانية...!!

(١) خالد أبو الفتوح، ما وراء الطقوس أو دمعة على التوحيد، الطبعة الثالثة، المنتدى الإسلامي للنشر، الرياض، ٢٠٠٢، ص ٩٨ - ٩٩.

خلاصة الكتاب

نخلص في نهاية هذا الكتاب إلى مجموعة من النتائج نستعرضها (باختصار) تباعاً وفق الترتيب الذي جاءت به، وهي على الشكل التالي:

- من النتائج العامة: لم يختلف كل من الفريقين على استعمال لفظ (التوسّل)، بحيث أنهم استعملوا هذا اللفظ وفق معناه اللغوي الذي قالت به المعاجم والفهارس المتخصصة، وأيضاً لم يستعمل كل من الفريقين أيّاً من الاصطلاحات الخاصة بلفظ التوسّل، بل توحد عنده المعنى اللغوي مع المعنى الاصطلاحي.

- أما في القرآن الكريم: فقد توحد المعنى المقصود للفظ الوسيلة لدى الفريقين، وإن كانت التعابير متعددة ومتفاوتة بعض الشيء.

- في جواز التوسّل لدى القائلين به: اعتمد هذا الفريق على مجموعة من الاستدلالات العقلية المنطلقة من فهم النصوص الدينية، وفق الضوابط التي حددتها الشريعة، كما

أكدوا على صحة هذه الاستدلالات من خلال إظهار موافقة الشارع على هذه النتيجة وإمضائه إيّاها، وذلك عبر عرض ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهّرة كما لجهة ما درج عليه المسلمون، أما المدرسة الكلامية الناشئة فهي وإن قالت بجواز التوسّل، إلا أنها جعلت بعض القيود والضوابط لجهة التدقيق بالعبارة والنص، كما لجهة التعبير بالأسلوب والسلوك، وهذا ما أدى بها إلى أن تكون وسطية الموقف بين الفريقين.

- في عدم جواز التوسّل لدى القائلين به: رفض هذا الفريق أعمال العقل وخصوصاً في هذا الجانب، وبالتالي كل الاستدلالات المبنية على العقل، واعتمد للقول بعدم جواز التوسّل على مجموعة من الأمور والمرتكزات أهمها: الجمود على ظواهر النصوص، وعدم تأويل ما يحتمل تأويله، الاعتماد على بعض الروايات الصادرة عن تيار إسلامي معين، ورد الروايات الباقية المنقولة عن طريق المخالفين لهذا التيار المذكور، كما كان اعتمادهم على سيرة بعض الشخصيات الإسلامية الماضية، والتي كانت تتحرك بالقول والعمل بما ينسجم مع القول بعدم جواز التوسّل، لكن حجم الموروث الروائي الضخم المساعد على القول بجواز التوسّل، جعل هذا الفريق المعترض يميز في قوله بحيث أنه فرق بين ما يجوز التوسّل به وبين ما لا يجوز التوسّل به، وبعبارة أخرى وافق على عدم القول برفض جواز التوسّل بالمطلق.

- وفي استعراض ما يجوز أو لا يجوز التوسّل به: تبين لنا أن كل فريق يجتمع مع الفريق الآخر في العديد من الموارد التي قالوا بجواز التوسّل به إلا الفريق المعترض فإنه يرفض القول بجواز التوسّل بالمخلوقات مهما سمت وعلا شأنها وبالأخص ذوات الأنبياء والأولياء، واعتبروا هذا الأمر من أخطر أنواع الشرك والضلال.

- وبخصوص أثر التوسّل وانعكاسه على الفرد والجماعة: فقد اعتبر الفريق القائل بالجواز أن التوسّل فيه من الفوائد العظيمة، والآثار التربوية، مما يجعل الفرد المسلم منقاداً غاية الانقياد إلى الباري تعالى من خلال استحضر النموذج والقدوة الحسنة في سلوكياته الفردية وتعاملاته الاجتماعية عبر سني عمره، وذلك من خلال زيارة هذا النبي (على كل الأنبياء سلام الله) أو الولي (رضي الله عن جميع الأولياء)، والتوسّل به.

- أما الفريق المعترض على التوسّل: فلقد اعتبر أن هذا الأمر يؤدي بالفرد المسلم إلى خسارة دينه ودنياه على اعتبار أن التوسّل مع ما فيه يمثل نوعاً خطيراً من الشرك بالله، وبالتالي ابتعاد هذا المسلم عن أوامر الشريعة، الأمر الذي يفسح المجال للشيطان ليعيث في هذا المسلم، وفي مجتمعه القائل بنفس مقولته فساداً وضلالاً.

وجهة نظر

بما أن هذا الكتاب تناول موضوعاً عقائدياً إسلامياً ونال الفرصة لطباعته ونشره، وبالتالي أصبح من جملة الآثار التي سأتركها خلفي في هذه الدنيا وسأحاسب عليها يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، أحببت والأمر كذلك أن أسطر في ختامه، وجهة نظر خاصة تنطلق من قناعاتي وبما ينسجم مع عقيدتي وديني .

قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ (١) وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (٢)، وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله...» (٣)، وقال الإمام علي رضي الله عنه: «النية الصالحة أحد

(١) سورة النجم، الآيتان: ٣٩ - ٤٠ .

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٤ .

(٣) المحمدي الريشهري، ميزان الحكمة، مرجع سابق، ١٠ / حديث رقم

العملين»^(١)، وقال الإمام الصادق عليه السلام : «العمل الدائم القليل على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين»^(٢).

وبعد ذلك أقول: إنني كمسلم أفهم من قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^(٣) أي تقربوا إلى الله بالأعمال الصالحة، وأفهم من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾^(٤) أي قل يا محمد عليه السلام: إنني لا أطلب منكم أجراً بدل تحملي عناء ومشقة أداء الأمانة وتبليغ الرسالة، بل كل ما أطلبه منكم أيها المسلمون هو أن تحبوا أهل بيتي المؤمنين على الرسالة من بعدي، ومن أراد منكم أن يكافئني فليطع الله بحبهم ومودتهم وإتباعهم.

فالزيارة لأضرحتهم هي تعبير عن هذا الحب، وعن هذه المودة، وأيضاً بزيارتهم تتحقق طاعة الله ورسوله بإتباعهم، والتوسل بهم إلى الله تعالى هو عمل يقيني يرضى الله تعالى عنه، لأنه سبحانه هو الذي أمر بمودتهم في الكتاب العزيز،

(١) نفس المرجع السابق، الحديث رقم ٢٦٦٨.

(٢) المرجع السابق، ٧ / الحديث رقم ١٣٩٩٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

لأنني عندما أزور أضرحتهم الشريفة أعبر عن طاعتي لله ولرسوله، وعندما أقف في هذه المشاهد الطاهرة كأنني أقول لله تعالى: يا ربي ها أنذا قد لبيت دعوتك ودعوة نبيك بإظهار حبي ومودتي وولائي وإتباعي لأوليائك، وأدعوك يا لا إله إلا أنت، أن تغفر ذنوبي، وتيسر أموري في الدنيا والآخرة، فبحق من تحبهم وأمرتنا أن نحبهم إلا ما فعلت.

وبعد، فإذا كانت نية المسلم كما أسلفت فعن أي شرك بالله يتحدثون؟ وأي عبادة لوثن يزعمون؟ وعلى فرض أن هناك بعض المسلمين ممن لا يملكون هذا المعنى بسلوكياتهم، فهل يجوز لمسلم أن يتهم آخر بالكفر والشرك لخطأ في التعبير أو التصرف!!؟

وعلى حد تعبير الدكتور أحمد الوائلي في إحدى محاضراته بهذا الخصوص حيث قال: حتى ولو على فرض وجود هكذا بعض من يُخطيء في التعبير أو التصرف فإنه معذور، والله سبحانه يحاسب على النية فلكل امرئ ما نوى^(١).

(١) أحمد الوائلي، محاضرة مسجلة في تفسر قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ حَقٌّ يَسْمَعُ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

لذلك فإنني أرى نفسي مع القائلين بجواز التوسّل بالأنبياء
والأولياء والصالحين الذين ثبتت ولايتهم عن الله ورسوله،
وبذلك التقي مع المدرسة الكلامية الناشئة في ما عبّرت عنه
بهذا الخصوص . .

والحمد لله أولاً وأخيراً . .

الأسانيد والمراجع^(١)

- ابن الأثير (مجد الدين المبارك بن محمد الجزري)، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العصرية، بدون تاريخ.
- ابن تيمية الحراني، التوسّل والوسيلة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠.
- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)، لسان العرب، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٥.
- جعفر السبحاني، التوسّل أو الاستغاثة بالأرواح المقدسة، الطبعة الأولى، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٩٢.
- الوهاية في الميزان، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٦.
- جمعية المشاريع الإسلامية، عقد الدرر في زيارة خير البشر (قامت الجمعية بإعداده)، بيروت، بدون تاريخ.

(١) هذه القائمة بأهم المراجع والأسانيد التي إعتمدت عليها، يضاف إلى ذلك العديد من المقالات في الكثير من الدوريات والمجلات.

- جون لويس يوركهاردت، البدو والوهابيين، ترجمة محمد الأسيوطي، بدون دار نشر، ١٩٨٨.
- الحلبي (ابن المطهر)، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٨٨.
- خالد أبو الفتوح، ما وراء الطقوس أو دمعة على التوحيد، الطبعة الثالثة، المنتدى الإسلامي للنشر، الرياض، ٢٠٠٢.
- دياب المهداوي، زيارة قبر النبي والتوسّل به، دار المحجة البيضاء، بيروت، ٢٠٠٤.
- الراغب الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- السبكي (تقي الدين)، شفاء السقام في زيارة خير الأنام، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.
- صائب عبد الحميد، ابن تيمية: حياته وعقائده، الغدير للدراسات، بيروت، بدون تاريخ نشر.
- الوهابية في صورتها الحقيقية، الغدير للدراسات، بيروت، ١٩٩٥.
- صدر الدين فضل الله، التمهيد في أصول الفقه، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٢.
- الطبرسي (أبو علي الفضل بن الحسن)، مجمع البيان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، ١٩٩٥.
- الطبري (محب الدين أحمد بن عبد الله)، ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٤.

- عباس القمي، مفاتيح الجنان، دار الرسول الأكرم، بيروت،
١٩٩٦.
- عبد الحسين أحمد الأمين، الغدير، مؤسسة الأعلمي، بيروت،
١٩٩٤.
- عبد السلام زين العابدين، مراجعات في عصمة الأنبياء، الطبعة
الرابعة، بدون دار نشر، بيروت، ٢٠٠١.
- عبد الله الهرري، المقالات السنوية، الطبعة السادسة، دار
المشاريع، بيروت، ٢٠٠٤.
- علي الخامنئي، استفتاء خطي من مكتب السيد علي الخامنئي
في بيروت.
- الفيروزآبادي (أبو إسحاق إبراهيم): القاموس المحيط، دار
الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- الكليني (أبو جعفر بن يعقوب)، الأصول من الكافي، دار
الأضواء ١٩٨٥.
- كمال الحيدري، الشفاعة: بحوث في حقيقتها وأقسامها
ومعطياتها، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ٢٠٠٤.
- محسن الأمين، كشف الارتباب، الطبعة الثانية، دار الكتاب
الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠.
- محمد جميل حمود، الفوائد البهية في شرح العقيدة الإمامية،
مركز العترة، بيروت، ١٩٩٨.
- محمد جواد مغنية، التفسير الكاشف، الطبعة الرابعة، دار العلم
للملايين، بيروت، ١٩٩٠.

- محمد جواد مغنية، عقليات إسلامية، عز الدين للنشر، بيروت، ١٩٩٠.
- محمد حسني الزين، منطق ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩.
- محمد رضا المظفر، أصول الفقه، الطبعة الثانية، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٠.
- المنطق، الطبعة الثالثة، دار التعارف، بيروت، ١٩٩٥.
- عقائد الإمامية، الطبعة الثامنة، دار الحوراء، بيروت، ١٩٨٨.
- محمد ناصر الدين الألباني، التوسّل: أنواعه وأحكامه، الطبعة الخامسة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.
- المحمدي الريشهري، ميزان الحكمة، الطبعة الأولى، مكتب الإعلام الإسلامي، بيروت، ١٩٩١.
- مظاهري (الأستاذ)، جهاد النفس، الطبعة الأولى، دار المحجة البيضاء، ١٩٩٣.
- هادي فضل الله، مقدمات في علم المنطق، الطبعة الثانية، دار الهادي، بيروت، ٢٠٠٠.

الفهرس

<u>الموضوع</u>	<u>الصفحة</u>
تقديم الكتاب	٥
المقدمة	١٣
لمحة تاريخية	١٣
هذا الموضوع لماذا؟	١٦
هذا الكتاب	١٧

الفصل الأول

التوسّل لغة واصطلاحاً

١ - التوسّل لغة	٢٣
٢ - التوسّل اصطلاحاً	٢٦
٣ - التوسّل في القرآن الكريم	٣٠
٤ - الفرق بين التوسّل والشفاعة	٣٥

الفصل الثاني

في إمكان التوسّل: أدلته، والقائلون به

- ١ - الأدلة العقلية على إمكانية التوسّل وقيمتها ٤١
- أ - العقل والأدلة العقلية ٤١
- ب - قيمة الأدلة العقلية ٤٥
- استقلال العقل وعدم استقلاله ٤٥
- ج - الأحكام تابعة للقصد (المقصودات) ٥٦
- ٢ - الأدلة الشرعية ٥٩
- أ - القرآن الكريم ٦١
- ب - السنّة المطهّرة: تعريف السنّة وحقيقتها وحجتها ٦٥
- الأدلة من السنّة ٦٨
- ج - سيرة المسلمين ٧٦
- ٣ - أهم القائلين بجواز التوسّل ٨٤

الفصل الثالث

عدم جواز التوسّل، أدلته، والقائلون به

- ابن تيمية: العقائد والأفكار (إطالة تمهيدية) ٩١

- ١ - الأدلة العقلية ٩٩
- أ - الموقف من هذه الأدلة ١٠٢
- ب - نتيجة التكر للعقل ١٠٥
- ٢ - الأدلة الشرعية ١٠٧
- أ - الجمود على ظاهر النص ومشكلة التأويل ١١٧
- ب - حجية عمل السلف ١٢١
- ٣ - أهم القائلين بعدم جواز التوسّل ١٢٦

الفصل الرابع

محاولات لعالم جديدة ورؤية مختلفة

- ١ - معالم جديدة وصعوبات متوقعة ١٣١
- الصعوبات المتوقعة ١٤٠
- ٢ - ما يجوز وما لا يجوز التوسّل به (استعراض عام) ... ١٤٣
- أ - الموارد التي يجوز التوسّل بها عند القائلين بالجواز ١٤٣
- ب - الموارد التي يجوز أو لا يجوز التوسّل بها عند
المعترضين ١٤٤
- ٣ - آثار التوسّل على صعيد الفرد والجماعة لجهة الأثر
الديني والاجتماعي ١٤٦

-
- أ - آثار التوسّل عند القائلين بجوازه ١٤٧
- ب - قول المعترضين على التوسّل (حول هذه الآثار) . ١٥٤
- خلاصة الكتاب ١٥٩
- وجهة نظر ١٦٣
- الأسانيد والمراجع ١٦٧
- الفهرس ١٧١